مبروكة.. امرأة عربية

رواية

أوكتاف شاربنتييه

(1940-1872)

ترجمة آلية

تحرير ومراجعة

توفيق عياد الشقروني

2026

عنوان الكتاب: مبروكة.. إمراة عربية
العنوان الأصلي الكامل: Mabrouka, femme arabe, roman
تأليف:أوكتاف شاربنتييه
ترجمة الية
تحريرومراجعة: توفيق عيّاد الشقروني
الناشر:الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية/ مؤسسة Libyan Word Bridge
السنة 2026م
سلسلة الدراسات المترجمة (11)؟؟؟؟؟؟
التصميم والإخراج: الناشر

LIBYAN WORD BRIDGE

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

إهداء

إلى كل امرأة.

نبض قلبها مع هذه المواقف،

ووجدت فيها صدىً لروحها.

OCTAVE CHARPENTIER

MABROUKA

Femme Arabe

ROMAN

Illustré de gravures sur bois de PAUL BAUDIER
d'après les croquis de l'Auteur.

4e ÉDITION

مبروكة

PARIS
ÉDITIONS D'ART DU "CROQUIS"
6, RUE BEZOUT

مقدمة المحرر

مبروكة والصحراء: قراءة في أبعاد الرواية وسياقها

تعد رواية "مبروكة.. امرأة عربية" (1921) لأوكتاف شاربنتييه وثيقة أدبية وبصرية تقف على حافة التماس بين الأدب الروائي والدراسة الإثنوغرافية، صاغها مؤلفها إبان إقامته في أقصى الجنوب التونسي عام 1917. في ذلك الزمان والمكان المضطربين، وبين قلاع "رمادة" و"ذهيبة" ووهج رمال "بن قردان"، حيث لم يكتفِ شاربنتييه بدوره كقائد عسكري، بل تحول إلى راصدٍ يقتفي أثر الروح البدوية في أدق تفاصيلها، ليخرج لنا بهذا النص الذي يجمع بين صرامة الملاحظة العلمية ورقة البوح الشاعري.

القيمة الجوهرية لهذا الكتاب تكمن في بنيانه المزدوج؛ فهو يقدم دراسة وافية لعادات قبائل "التوازين" و"المرازيق" و"غمارسن"، مستعرضاً طقوس الزواج، وعروض الفرسان، ورقصات الشعر، معرجاً على البنى الاجتماعية والمعتقدات الشعبية التي كانت تحكم حياة "البدو". غير أن الرواية في جوهرها تتخذ مساراً وجدانياً فريداً، إذ اختار المؤلف أن يمنح صوته للبطلة "مبروكة"، لتسرد حكايتها بأسلوب "الموال" الصحراوي الحزين، محاولةً تصوير حياة المرأة البدوية بين جدران البيوت الطينية وفسحة الخيام، ومشاعرها تجاه زوجها "علي" الذي يجسد نموذج الفارس الصارم المرتبط بصهوة جواده وأزيز رصاصه أكثر من ارتباطه بلغة العواطف.

وعلى الرغم من الشاعرية التي تغلف النص، فإن الوقوف أمام رواية "مبروكة" اليوم يستوجب نظرة نقدية تفكك "العين الاستشراقية" التي كتبت بها. فالمؤلف، وإن أظهر تعاطفاً إنسانياً عميقاً مع شخصياته، يظل

أسيراً لمركزيته الأوروبية التي ترى في البدوي كائناً قدرياً يتقبل مشاقه بجمود أسطوري، كما أنه يسقط أحياناً تصوراته الغربية عن السعادة والشقاء على واقع مغاير تماماً. إن محاولة رجل فرنسي التحدث بلسان امرأة عربية بدوية هي بحد ذاتها "مغامرة سردية" تضعنا أمام تساؤل حول مدى قدرة الآخر على تمثيل الذات الشرقية دون الوقوع في فخ الأنماط الجاهزة، ولكنها في الوقت ذاته تمنحنا مرآة تاريخية نرى فيها كيف رُسمت ملامحنا في المخيال الغربي مطلع القرن العشرين.

وفي هذه الترجمة، كان الرهان قائماً على تحقيق توازن دقيق بين الأمانة العلمية في نقل المصطلحات الثقافية والبيئية الأصيلة وبين الجزالة الأدبية التي تحفظ للنص الفرنسي إيقاعه الموسيقي. لقد تم التعامل مع النص كلوحة متكاملة، لا تنفصل فيها الكلمة عن الرسوم التوضيحية التي رافقتها، لضمان نقل القارئ إلى قلب تلك التجربة الإنسانية، واستحضار أنفاس الصحراء، وبخور البيوت المعطرة، وصيحات الفرسان في تلك الربوع التونسية العريقة، بكل ما تحمله من سحر وقسوة وتناقضات.

يعد أوكتاف شاربنتييه (Octave Charpentier)، المولود عام 1872 والمتوفى عام 1940، صوتاً أدبياً فرنسياً مميزاً جمع بين نظم الشعر والكتابة الروائية والاهتمام بالفنون التشكيلية. عُرف شاربنتييه بروح المغامرة التي دفعته لاستكشاف آفاق ثقافية بعيدة، حيث انعكست تجربته في الجنوب التونسي بشكل عميق على نتاجه الأدبي، محولاً ملاحظاته الميدانية إلى نصوص أدبية رفيعة. وتزخر مسيرته الإبداعية بالعديد من الأعمال التي تعكس ولعه بالجماليات البصرية والإيقاع الشعري، ومن أبرزها مجموعاته الشعرية قصيدة الوردة- (Le Poème de la Rose) و-أغاني الريح- (Les Chansons du Vent)، بالإضافة إلى مؤلفاته التأملية مثل ساعات فكري- (Les Heures de ma Pensée). كما لم يغفل شاربنتييه عن توثيق الحياة الباريسية في أعماله، كما يتضح في كتابه عبر مونمارتر-

(A travers Montmartre)، وكتاب عذارى مايو- (Les Vierges de Mai)، مما يجعله أديباً متعدد الأوجه، استطاع أن يمزج في رواية مبروكة- بين شغفه بالشرق وخبرته الفنية في صياغة المشهد الروائي.

ورواية مبروكة، امرأة عربية، رواية- (Mabrouka, femme arabe,) roman) منذ صدور طبعتها الأولى عام 1911 شاهدة على اهتمام أوكتاف شاربنتييه بالبيئة البدوية، وهي الطبعة التي ازدانت آنذاك برسومات الفنان بيير برونيه. غير أننا في هذا المشروع اعتمدنا الطبعة الرابعة الصادرة في باريس عام 1921 عن دار إصدارات فن الكروكي-، لكونها تمثل الصيغة الفنية الناضجة للعمل؛ حيث أعاد الفنان بول بودييه صياغة الرؤية البصرية للكتاب عبر نقوش خشبية استلهمها من رسوم ومخططات المؤلف الميدانية في الجنوب التونسي. يقع الكتاب في 226 صفحة، وقد حظي بتقدير كبير في الأوساط الفنية الفرنسية، مما دفع الناشر حينها لتخصيص نسخ محدودة وفاخرة منه على ورق اليابان الإمبراطوري وورق أرش الفاخر، ويظل الكتاب اليوم محفوظاً في المكتبة الوطنية الفرنسية كأحد أبرز الأعمال الروائية التي حاولت ملامسة جوهر الحياة الفطرية في مطلع القرن العشرين.

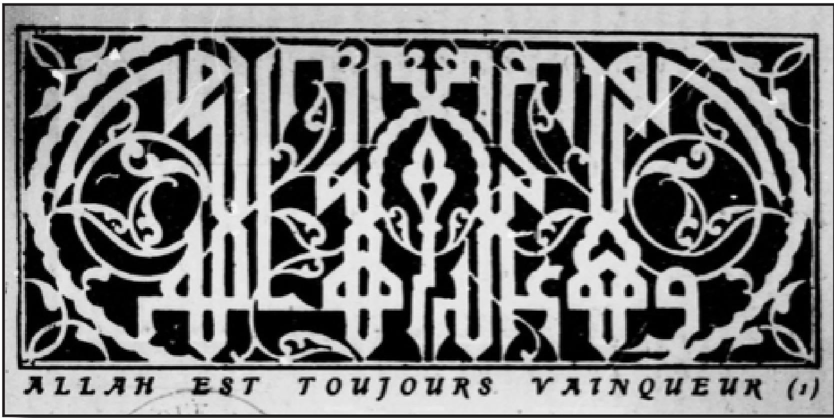
ملاحظات:

عرّف المؤلف بعض المقاطع على أنها "قصائد عربية"، لكن النصوص الأصلية غير مُدرجة في الكتاب. وقد يكون بعض هذه المادة مستوحى من الشعر الشعبي التونسي المحلي الذي انتشر في المناطق الجنوبية للبلاد ويُلقى شفاهة، وليس من أشعار فصحى منشورة في دواوين تقليدية. ولم يتسنَّ لنا العثور على نصوص عربية مكتوبة مطابقة في المصادر المدوّنة، لذا أُشير إلى أن بعض المقاطع في هذه الترجمة قد تمثل شِعراً شعبياً بالدارجة أو نماذج من التعبيرات العامية التي اجتمع عليها الناس في أماكن وجود المؤلف.

تم الحفاظ على أغلب تهميشات المؤلف في أماكنها من الاصل، عدا بعضها التي لم تعد لها ضرورة للقارئ باللغة العربية. فتم استبعادها.

توفيق عياد الشقروني
السراج-طرابلس
الاثنين 23 فبراير 2026م





(لا غالب إلا الله) نقش في جامع الزيتونة بتونس (شعار ملوك غرناطة).

ملاحظة الناشر الفرنسي:

تعد رواية "مبروكة، امرأة عربية" عملاً روائياً ترسم فصوله القصيرة جداً الأحداث البارزة فقط في حياة البطلة. وبما أن الحكاية تُروى بلسانها، في ما يشبه "الميلوبيه" (الترتيل الموسيقي) التي يرتجلها الأعراب الرحل على إيقاع خطى مشيهم وهم يقطعون الفيافي الصحراوية الشاسعة، فإنها تحتاج لكي تُفهم على وجه صحيح إلى أن تُستكمل بالملاحظات التالية المتعلقة بتقاليد وعادات "أعراب البادية"

مقدمة المؤلف

إن المؤلفات التي تناولت المرأة العربية عديدة، غير أنها تُعنى عادةً بنساء المدن اللواتي تبدلت عاداتهن نوعاً ما جراء الاحتكاك بما نسميه حضارتنا. أما أعراب البادية في أقصى الجنوب التونسي، فقد حافظوا أكثر من سكان تونس وبنزرت، بل وحتى سوسة وصفاقس على تقاليدهم العريقة، مع إضافة جرعة قوية من الخرافات والأساطير إليها. ولقد عشنا بين ظهرانيهم لأكثر من سنتين، من ساحل البيبان إلى حاجز الظاهر، وصولاً إلى تخوم العرق الكبير. وسواء تعلق الأمر بقبائل التوازين أو المرازيق أو غمراسن، أو بأهالي فم تطاوين ورمادة وذهيبة، فإننا نجد تقريباً العادات ذاتها، ونمط العيش نفسه، والطقوس عينها في الأحداث المفصلية للوجود.

لقد استفاض أغلب الكتاب، بدافع الشفقة، في الحديث عن مصير المرأة العربية: تلك المنعزلة أو الخفية كما وصفتها ميريام هاري. غير أن الدكتور ليمانكسي، في كتابه العادات العربية، يبرهن على أن هذه الشفقة ليست في محلها. فالمرأة العربية، بحكم الوراثة، واحتراماً للقرآن بوصفه الشريعة الأسمى، وبحكم ميلها الفطري، هي امرأة بيت. وينحصر مثالها الأعلى في وظيفة المرأة الجوهرية: أن تكون أماً.

إن المسلمات لا يعرفن شيئاً من فضول أو نفاذ صبر أو صخب نساء بلدنا. فهن يعشن خلف المشربيات وفي بيوت بُنيت لتواريهن عن كل فضول أجنبي، دون رغبة في سفر أو تنقل أو تجديد؛ إذ يستغرق الزوج والطفل كل تفكيرهن. فإذا كان الزوج عادلاً طيباً، وكان الأبناء أصحاء أقوياء لا سيما إن كانوا ذكوراً فإن سعادتهن تكون غامرة.

وفي البادية، تسير النساء حاسرات الوجوه عادةً، نظراً لندرة لقائهن بـ الكافر (الأجنبي) الذي يتعين عليهن مواراة ملامحهن عنه على وجه الخصوص. ومع ذلك، يفرض عليهن القرآن الاحتجاب خارج بيوتهن، لذا

تراهن يسحبن فجأة طرفاً من الملحفة على وجوههن إذا ما باغتهن ظهور رجل. أما الزواج، الذي يُدفعن إليه في سن مبكرة جداً، فيلقي بهن في أحضان زوج يقبلن به غالباً دون معرفة سابقة، فهن الوحيدات اللواتي لا يُستطلع رأيهن عند اتخاذ هذا القرار المصيري.

يستطيع الخطيب، عبر وساطة أمه أو شقيقاته، أن يستعلم عن خصال خطيبته وملامحها، هذا إن لم تسعفه الصدفة برؤيتها. وهو من يسلم الصداق ؛ إذ الخطيب هو من يدفع المهر، وعندها يتم الزواج. ومن المؤكد أن الخطيبين في مجتمع الرحل تتاح لهما عادةً فرص للتعارف؛ فقد تسنى لي في احتفالات زفاف الشاوش (رئيس العرفاء) لاصلع (Las Lough) بمدينة بن قردان، وأنا أعاين وجوه العديد من الفتيات الشابات اللواتي لبثت بينهن قرابة الساعة. كان الجمل الذي يحمل جحفة العروس باركاً على حافة المسلك المهيأ لمرور الفانتازيا. وكانت الفتيات يطوقنه، وعددهن يناهز الثلاثين، وهن يطلقن اليو يو (الزغاريد) الحادة والمبهجة جرياً على التقاليد، كلما مرت كوكبة من الفرسان كالإعصار وسط سحب الغبار المحمرة بفعل الشمس المشرقة ووسط دوي الطلقات.

وفي انتظار الكوكبة التالية، كن يتبادلن الأحاديث الصاخبة تماماً كفتيات فرنسا، وهن ينحنين الواحدة تلو الأخرى، ثم يزحن (الرداء) قليلاً ليروا بشكل أفضل أو ليُرِيْن أنفسهن فيوجهن نحونا أعينهن الواسعة واللامعة، المكحلة والمحددة بالسواد، قبل أن يعدنها مجدداً إلى ظلمة الخمار. وكانت الضحكات المكتومة تبرز شقاوتهن الفتية. وبما أنهن كن يكشفن عن وجوههن أمام الرومي (الأجنبي)، فقد كان من السهل على المسلمين القريبين منهن رؤيتهن أيضاً؛ فإذا ما وجد بين هؤلاء الخطيب الموعود، كانت الفرصة سانحة وممتازة.

وفي البادية، تستمر احتفالات الزفاف أسبوعاً على الأقل. وفي كل مساء، حين يغلف الليل الخفيف بلونه الأزرق الداكن المشهد الصحراوي،

يُشعل بجانب الخيمة الكبيرة المنصوبة أمام الغوربي (البيت الطيني) موقدٌ ضخم يغذيه الخدم لساعات بأحمال من أغصان البطوم. وتندلع ألسنة اللهب الحمراء والذهبية والنحاسية لترتفع ثلاثة أمتار في الهواء، لتضيء بطريقة ساحرة حلقة المتفرجين الذين يقفون بالجوار مشدوهين بمشاهد الألعاب المتنوعة التي دُعوا إليها. وأمام الخيمة، وفي صف واحد، تجلس وصيفات الشرف [1] متربعات على الطريقة العربية، وعددهن ثمانٍ أو عشر أو اثنتا عشرة أو أكثر. ويمثل صف الفتيات هذا ما يمكن تسميته خلفية المسرح. وفي المقابل، وبدلاً من مقصورات المسرح الأمامية، تجلس النسوة والفتيات الصديقات وهن منقبات بعناية. وهنّ متلفّعات بخمرهنّ بعناية. ثم تمتلئ الحلقة بالكامل، والتي يبلغ قطرها نحو عشرين خطوة على الأقل، بحشود المتفرجين الذين يصطفون في أربعة أو خمسة أو ستة صفوف، واقفين خلف ضيوف الشرف الذين خُصصت لهم مقاعد في الصف الأول.

ينقسم مؤدو العرض إلى فئتين: المؤدون المأجورون، والمؤدون المتطوعون أو الرسميون. أما الفئة الأولى فهم من الزنوج، مغنين وراقصين، بالإضافة إلى فنان مرتجل يقدم مشاهد كوميدية وساخرة مضحكة للغاية، وإيماءات (بانتوميم) من نوع غير متوقع تماماً بالنسبة لنا.

المغنون الزنوج، وهم غالباً رجال طوال القامة بشكل لافت، يرتدون ملابس بيضاء بالكامل؛ عبارة عن قميص طويل على الطراز القديم وسروال فضفاض يضيق عند الكاحلين. يغطون رؤوسهم بالشاش الأبيض، ويعصبون قبعاتهم بعمامة ملونة. ويمسكون بأيديهم عصياً طويلة جداً ذات رؤوس فضية، يربطون بها مناديل ملونة.

هؤلاء الزنوج الذين لا يقل عددهم عن ثلاثة في أعراس الأعيان

1- تُختار وصيفات الشرف من بين الفتيات اللواتي يُنتظر زواجهن خلال العام.

يتقدمون أمام وصيفات الشرف، وبعد ما يشبه التحية التي لا تخلو من نبل، يشرعون في الغناء بصوت واحد، وبحناجر قوية تميل قليلاً إلى البحة والخنة، منشدين لحناً يوقعونه بدقة وإحكام لا تشوبهما شائبة.

وبمجرد انتهاء آخر شطر من المقطع، يؤدون رقصة دورانية ذات أثر غريب ومثير تحت ضوء نار الشجيرات. فتتطاير قمصانهم البيضاء الفضفاضة، وهي مغمورة بزرقة الليل وأرجوان ألسنة اللهب، بينما ترفرف المناديل الملونة المعلقة في نهاية العصي ذات الرؤوس الفضية، كأجنحة فراشات ليلية كبيرة.

تتميز قفزاتهم بدقة وإحكام يماثل إيقاع أغانيهم. إنه استعراض راقص (باليه) حقيقي يؤدونه، لإدخال البهجة القصوى على نفوس الضيوف وعلى نفوسنا نحن أيضاً. وبعد هذه الفقرة الأولى، يواصلون الطواف حول الحضور، يغنون ويرقصون في محطات متتالية، ولا سيما أمام الشخصيات المرموقة.

وفي الفترات الفاصلة، يمزج الزنجي المهرج مشاهده الهزلية والساخرة ببلاغة حركية مذهلة. لهؤلاء الزنوج روح كوميدية ونقدية ذاتية للغاية؛ فقد عرفتُ أحدهم، ويُدعى حبوس، نال من قائد مصلحة الشؤون الأهليّة حكماً بالسجن لمدة خمسة عشر يوماً، بسبب إقحامه في ارتجالاته الشعرية، هجاءً لاذعاً للغاية لبعض أخطاء إدارتنا. وعادةً ما يرى هؤلاء الزنوج أنه من الأفضل توجيه مدائح مبالغ فيها وتمنيات طيبة للأعيان المدعوين سواء من الأهالي أو الروم. وهي مدائح تجعل قطع الدورو [2] الرنانة تنهال في شاشياتهم (قبعاتهم) التي يمدونها في الوقت المناسب.

أما المؤدون المتطوعون، فهم الشباب الراغبون في الزواج قريباً. يدخلون الحلقَة متزيّنين بـ قندوراتهم الحريرية الأكثر لمعاناً، واضعين الشاشية الحمراء ذات الشرابة الطويلة من الحرير الأسود. وهم مزودون

2-قطعة نقدية فضية بقيمة 5 فرنكات.

بحفنات من الدورو التي استأجروها لهذه المناسبة من أحد الأهالي المتخصصين في هذه التجارة وهو يهودي في أغلب الأحيان.

يتقدمون، الواحد تلو الآخر، أمام خادم طبالاً يحمل (طبلاً عريضاً)، يجثو هذا الخادم تباعاً في نقاط مختلفة من الحلقة، مديراً جلد الطبل بوضع مائل. وبحركة مسرحية، يلقي الشباب، واحداً تلو الآخر، بقطع الدورو على الرق (جلد الطبل) حيث ترن وترتد، فيتلقفها الخادم وهي طائرة ثم يعيدها إليهم. ولم نتمكن من معرفة المعنى الأصلي للعبة الدورو هذه، رغم استجوابنا للعديد من الأهالي بهذا الشأن. ودون إجهاد عقولهم، أجابنا الجميع دوماً بذات الرد: إنها العادة.. لاحقاً، قدم لنا كاتب مستشرق هذا التفسير: إن لعبة الدورو في بعض الدواوير تعني: ألقي بمالي من كل قلبي لأجمل الجميلات... لعلها تقبل بي زوجاً لها.

هذه اللعبة، التي لا تبدو مبهرة كثيراً حين يؤديها الشباب مشاةً، تصبح لعبة مهارة في غاية الجمال بمجرد أن يكون قاذفو الدورو على ظهور الخيل.

في بن قردان، رأينا خيالة يمتطون فحولاً رائعة، بأعنّة وسروج متعددة الألوان ومطرزة بغنى، جاعلين الركائب الفضية العريضة ترنّ، وهم يقتحمون ثلاثة في وقت واحد صفوف المتفرجين، ليدخلوا الحلقة وهم يرفعون خيولهم (تبوريدة) التي كانت تطلق صهيلاً حربياً وهي واقفة على أرجلها الخلفية، وتتقدم بهذا الشكل بضع خطوات، وسط تحيات الرجال وزغاريد النساء الحماسية.

كانت البرانس المصنوعة من الحرير الخفيف والفاخر تتطاير في نسمات المساء، وكان تلاعب انعكاسات النار يضفي على المشهد جلالاً عظيماً وجمالاً نبيلاً مؤثراً. ومن فوق صهوات جيادهم، وبمهارة خاطفة، كانوا يلقون بقطع الدورو التي يخرجونها من محفظة جلدية (فيلالي) معلقة على أكتافهم فوق الطبال. ثم، والخيول مرفوعة القوائم معاً مرة أخرى، يعيدون عبور حلقة الحاضرين دون وقوع أي حادث، رغم اكتظاظ

المساحة الضيقة أصلاً بالفتيات والفتيان الذين يتسللون في كل مكان.

ولوصيفات الشرف أيضاً دورهن في هذه الأفراح؛ فبشعر مرسل يتدلى على الأكتاف، يؤدين لعدة ساعات رقصة الشعر. الشعر المدهون باستمرار بالزيت حيث تضع كل فتاة إناء زيت بجانبها يتدلى ككتلة ثقيلة وطويلة. تميل الرأس أولاً نحو اليمين، ثم بحركة مباغتة، تعيده نحو اليسار، مما يجعل الشعر يرسم حركة دورانية سريعة، ثم بحركة عكسية مماثلة، يعاد من اليسار إلى اليمين، ويستمر ذلك دون انقطاع، وبجنون متصاعد، تحفزه روائح النباتات العطرية المحترقة في أوانٍ فخارية تمررها الماشطات (المسنات) أمام وجوههن.

تسمع لضفائر الشعر صفيراً، وتجتهد الوصيفات الثمان أو العشر في هذه اللعبة، في نوع من الهستيريا الجماعية. وأحياناً، تسقط إحداهن وتغيب عن الوعي (يُغشى عليها). حينها تهرع عجوز، فتجعلها تستنشق بعض العطور التي تنعشها، وسرعان ما تستأنف دورها في هذه اللعبة الرتيبة التي لا تنتهي، إلا إذا اضطروا لحملها إلى داخل الخيمة لتستعيد وعيها.

إن رقصة الشعر هذه، التي تُؤدى بينما تظل الفتيات جالسات على الطريقة الشرقية، يبدو أن هدفها هو السماح لهنّ في هذه المناسبة الاستثنائية باستعراض غنى شعرهن. إن بريق ولمعان قلائد من الأحجار الكريمة، أو النحاس، أو الفضة، أو الذهب، والمشابك، والمدليات، والأقراط، والأساور الثقيلة، تجذب أنظار الرجال وتأسرهم بسحرها. ففي المرة الوحيدة التي يمكنهنّ فيها استعراض مفاتنهنّ دون إثم، فإنهنّ يقدمنها بأقصى قدر من الهيبة، متزينات بالطريقة التي يجدنها الأكثر جذباً.

يستمر العرس حتى منتصف الليل، ممزوجاً بصيحات الإعجاب، وأصوات الطبال و الدربوكة، والأنغام التي تخرج من الخياشيم، و الزغاريد الحادة والمطولة، وسط عبق النباتات العطرية المحترقة، وتحت انعكاسات

النار الكبيرة الراقصة التي ستضيء أضواؤها الأخيرة بصعوبة رحيل الحشود العائدة إلى القربيات المجاورة، في ليلة زرقاء عادت إلى سكونها.

وأحياناً، يعلق القمر البدر قنديله الفضي فوق هذه اللوحات المتوقدة والشاعرة؛ وعندها تُطفأ نار الشجيرات وتجدد ديمومة ضوء القمر سحر الديكور المعتاد. واليوم الأخير من أفراح الزواج هو يوم الضيافة [3]؛ وفي هذه المأدبة يُدعى الأعيان. وحسب العرف، إذا كان من بين المدعوين شخصيات يدين لها العريس بالتوقير، فإنه لا يجلس بجانبهم، بل يحضر الضيافة بدافع الاحترام كخادم، ساهراً على حسن تنظيم كل شيء؛ ولا يمكن لأي إلحاح أن يثنيه عن هذا الموقف الذي لا يمكنه التخلي عنه. وطبعاً، لا تحضر العروس ولا أي امرأة أو فتاة هذه المآدب.

بعد الضيافة تأتي (الفروسية). حيث يتوجه الجمل الذي يحمل الجحفة [4] بالعروس، محاطاً بالنساء والفتيات المتلفعات بخمرهنّ، على وقع الموسيقى إلى المكان المحدد سلفاً. هناك يتم إناخة الجمل، ويظل محاطاً بالنساء والفتيات اللواتي يجلسن على الرمل بانتظار الفانتازيا. ومن خلال ثقوب الستر الذي يحيط بهيكل الهودج، تشاهد العروس مرور الخيالة وهي في مأمن من الأنظار.

يصطف صفان من المتفرجين على كل جانب من الحلبة المخصصة لمرور الخيول. وفجأة، كالإعصار، يمر سرب من الخيالة بملابسهم المتعددة الألوان وبرانسهم المتطايرة، وسط فرقعة طلقات البارود والدخان. وبالكاد نراهم قادمين حتى يكونوا قد عبروا، وسط وقع حوافر الخيل الرنان. والخيول، التي أثار حماستها البارود، تبدو كشياطين ثائرة. ولمدة ساعة أو أكثر، تتوالى الأسراب، وتعلن أغنية البارود وزغاريد النساء، في فرحة الشمس المتوقدة، سعادة الخطيبين اللذين سيصبحان غداً زوجين.

إن استهلالة مبروكة، المرأة العربية ليست سوى أغنية الفانتازيا التي

3-الضيافة: مأدبة احتفالية.

4-الجحفة= الهودج الذي تركبه العروس(محرر)

تختتم أفراح القرآن. أما الرواية فتبدأ في ليلة الزفاف؛ حيث يشعر المرء منذ البداية بأي سلطة وأي قوة يتسربل بها الزوج (السيد). وخضوع المرأة يُمنح بلا جهد بل وبحماس إن صح القول فسعادتها تكمن فقط في رضا وفرحة الزوج، الذي سيكافئ كل تعبها بحبه، مهما كان مقدار ذلك الحب. ولا بد من تخليص البيت من التأثيرات السيئة، والأرواح الشريرة، و الجن، الذين يشغلون حيزاً كبيراً في المعتقدات والخرافات العربية. إن العطور والأعشاب العطرية المحترقة هي التي ستطردها. بعد ذلك، يصبح الانشغال المهيمن هو: الأمومة وبالأخص، إنجاب ولد.

إن رجل البلاد، العربي الفطري الذي حافظ على طباع الأقدمين، حين تسأله: كم لديك من الأطفال؟، لن يعطيك إلا عدد أطفاله الذكور. وإذا لفتَّ نظره إلى أن لديه بناتاً أيضاً، يكتفي بإيماءة واسعة من اللامبالاة ويجيب: البنات... هؤلاء لسن أطفالاً.. لقد سمعنا هذا الرد مراراً، في نواحي أم سويغ و الحمادة. ولقد أبطل محمد، النبي القدّيس، عادة قتل البنات عند ولادتهن، لكن البنت، رغم قبولها الآن، تظل غير مرغوب فيها، بل وغالباً ما تقع ضحية لنوع من كراهية الأب.

ومع ذلك ويجب الاعتراف بذلك هناك من العرب الرحل من يحبون بناتهم بقدر حبهم لأبنائهم، ويحملونهن بين أذرعهم، ويدللونهم كما تفعل الأم. لكنها في الحقيقة تظل الاستثناء. لقد رأينا في قبلي عربياً من المخازنية، يلطم زوجته بلطمة وحشية لأنها وضعت لتوها طفلة صغيرة جميلة، عمدت الأم بعد اثنتي عشرة ساعة من ولادتها إلى تقبيحها بالكحل والحناء والوشوم، لدرجة جعلت منها وجهاً كاريكاتورياً لعجوز صغيرة.

لا شيء مما وضعناه في هذه الرواية من نسج الخيال. العجائز، والوسيطات، والساحرات أو العريفات، هنّ أيضاً كما سيظهرن هنا. فلكل شيء عندهن تميمة، أو جرعة سحرية، أو علاج. يُصغى إليهن، ويُخشين... ومع ذلك، يُلجأ إليهن دائماً. أما طبيب الاستعمار الطبيب، الذي يقدم

رغم كل شيء نفعاً كبيراً بين هؤلاء السكان الذين تنهشهم أمراض فظيعة وفتّاكة، كالرمد والجدري والتيفوس والزهري (الذي يسمونه السلطان، أو المرض الكبير، أو مرض السلاطين)، فلا يُستدعى إلا حين يحضر الموت... وحتى في هذه الحالة لا يُستدعى دائماً.

وعندما يكون الطبيب صبوراً بما يكفي، وعندما يبذل الجهد لتحليل تلك الغرائب، وأنواع الحياء، والمقاومة، والارتياب المتأصل في هذه الطبائع المتمردة بعناد على اختراق ثقافتنا، فإنه ينجح أحياناً في أن يتخذ لدى الأهالي صورة مرابط قديس، فيُقبل ثم يُبجل، لكن هذا الأمر نادر جداً.

إن تعدد الزوجات، كما هو معروف، مسموح به عند المسلمين. فالقرآن يسمح للمؤمن باتخاذ أربع زوجات كحد أقصى، بمجرد قدرته على تأمين مهورهن وإيوائهن وضمان عيشهن. وهذا يخلق أوضاعاً مؤلمة كالحالة التي سنرى فيها مبروكة الحزينة. ومن هنا أيضاً، يتجلى الخضوع المطلق للزوجة تجاه زوجها دون أي رغبة في التمرد. ستتفاقم الغيرة بشكل مؤلم، لكن على الزوجة الأولى أن تقبل، دون شكوى، الضرة المفضلة الجديدة. وإذا أصبحن يوماً أربع زوجات، فلك أن تتخيل الحيل الدقيقة التي سيستخدمنها لمحاولة العودة لمكانة المفضلة... أما الزوج، فيبدو أنه لا يعير كل ذلك أي اهتمام؛ فهو ينظم حياته وفق هواه، ويتحدث بلسان السيد، ويُطاع، ويظل غير مبالٍ بالباقي.

قد يعتب علينا بعض المتشددين في الإسلام لأننا منحنا بطلاتنا عاطفية لا نكاد نجدها لدى المسلمات. ومع ذلك، فإن هذه الحالة قد تحدث، ولا نعتقد أننا ارتكبنا هرطقة كبرى بجعل زوجتي علي تتقاربان. في جزء معين من الرواية، يدور الحديث عن القهواجي. صاحب المقهى في القرية، يقدم الشاي والقهوة والمشروبات الغازية (يسميها العرب الكَازوز). وعنده، في المساء، حتى منتصف الليل، بل وأبعد من ذلك؛ حيث يغنون، ويعزفون الموسيقى، ويرقصون. هناك، مستلقين على حصير أو جالسين

على الطريقة الشرقية، يرتشفون فناجين صغيرة جداً من القهوة التركية أو الشاي، ولساعات طويلة، يصغون إلى التراتيل الرتيبة، البطيئة، العاطفية والحنجرية للمغنيات، وإلى تم تم (قرع) الدربوكة، وخنة الفلوت (الناي). ثم ترقص البغايا المتبرجات رقصة البطن التي يضبط الحاضرون إيقاعها، المتسارع أكثر فأكثر، بالتصفيق بالأيدي. هناك أيضاً يفقد مدخنو الكيف وعيهم طوال ليالٍ كاملة. وهناك أخيراً، يذهب الأشقياء لتذوق لذات حزينة مع البغايا بأسعار منخفضة (أربعة سوردي: أربعة قروش[5] بالنسبة للمسلم). وأحياناً يوجد راقصون من الغلمان الذين ينافسون البغايا بنجاح

إن البدوي هو حقاً آكل للمسافات ؛ ففي دمه تجري روح المغامر. خيمته وحصانه هما أعز ممتلكاته. وقد رأينا من هؤلاء البدو من يمتلكون بيتاً من الحجر أو من الطين في قريتهم، ومع ذلك ينصبون خيامهم المصنوعة من وبر الإبل في الفناء، ليناموا فيها بارتياح، كما لو كانوا في قلب الصحراء. فبالنسبة لهؤلاء، البيت هو القبر سلفاً؛ وهم لا يستسلمون له طالما هم على قيد الحياة.

يُقال إن العربي يحب حصانه. هو يحبه ككائن هو ملك له، لكنه لا يمنحه الرعاية التي يفرضها العطف الحقيقي. فهو يمتطيه وهو صغير جداً، مما يسبب له عاهات لا تُشفى. ويحطم فمه ولسانه بـ لجام قاطع ومروع، يخرج الدم مع كل ضغطة مفاجئة. هو يرهق الحيوان دون قياس، ولا يقوم بأي تنظيف يستحق الذكر، فلا يغسله ولا يتمشطه (بالمحسّة)، ويغذيه تغذية هزيلة. هو طاغية مع حصانه كما هو مع امرأته: هو السيد، القاسي والظالم دائماً عن غير وعي. هو فارس بالفطرة، يتشبث بعقبيه في بطن الدابة بوضعية قد تثير سخرية أساتذتنا في سومور [6]، لكنه يعرف

5 ملاحظة: إستعمل المؤلف لفظة الـ سو (Sou) هو مصطلح فرنسي قديم للعملة، والمؤلف استخدمه ليشرح للقارئ الفرنسي قيمة السوردي المحلية.

6-سومور (Saumur): يقصد بها المدرسة الوطنية للفروسية في فرنسا، وهي مدرسة

تماماً كيف يكون في هذه الوضعية غير قابل للاقتلاع عن صهوة الجواد، وهذا أمر له شأنه. وهو يدين لملابسه الفضفاضة بمنظر خلاب وجلال في الهيئة، لدرجة أن مجموعة من الخيالة الأهالي تفرض دائماً الإعجاب.

في المناطق الحدودية في أقصى الجنوب، تكون الغزوات هي القاعدة. ولهذا السبب، كانت هذه المناطق العازلة مضطربة بشكل خاص خلال الحرب الكبرى. وفي كل مناسبة، كان التوارق والطرابلسيون غير الخاضعين يحاولون القيام بتوغلات. وتعرضت مراكز للحصار، وأُبيدت أو دُمِّرت طوابير عسكرية، وعاش السكان الأهالي آنذاك في حالة استنفار حربي دائم. لقد شهدنا بصفتي آمراً لمركز في هذه المناطق بعد مغادرتي الجبهة الفرنسية هذه الإنذارات المتكررة، حيث كانت أضواء المكاحل (البنادق) تخرق ظلام الليل من أجل بضعة جمال. وكان يسقط جرحى وقتلى من كلا الجانبين في الميدان. وبعد الباش شاويش الاصلع من قوم بن قردان،[7] الذي روينا قصة زواجه في بداية هذه الملاحظات، جاء الدور على الباش شاويش في رمادة المعسكر الذي كنت أقوده في عام 1917 الذي لقي حتفه في إحدى هذه المعارك. وهذا الأخير أُعيد محمولاً على ظهر حصان لمسافة اثني عشر كيلومتراً، مسنوداً بين فارسين، تماماً كما أُعيد علي في نهاية الرواية.

عندما أنزلوه من الحصان، أثبت الطبيب أن رصاصة قد اخترقت الأمعاء، ورأى أن أي عملية جراحية لن تجدي نفعاً لأن الموت كان وشيكاً. ومع ذلك، كان الباش شاويش يواسي زوجته المذعورة التي كانت تنتحب، قائلاً لها: اسكتي، هذا لا شيء. بعد ثلاثة أيام سأمتطي الحصان من قِران جديد... أليس كذلك يا طبيب؟. وبعد ست عشرة ساعة، فارق الحياة، وتحت لواء قبيلته وألوان العلم الفرنسي، دُفن في مقبرة الأهالي الملحقة

عسكرية عريقة.

7- قوم بن قردان (والقوم Goum هم وحدات عسكرية من المتطوعين المحليين الأهالي كانوا يعملون تحت إمرة الجيش الفرنسي في المناطق الحدودية).(محرر)

بمقبرة جنودنا.

ومع ذلك، فإن هؤلاء المحاربين يحاربون معنا حباً في الحرب أكثر مما هو حب فينا. وإن العدو في السهول، وفرقعة البارود، بالنسبة لهم الأفراح القيمة الوحيدة التي تستحق العيش. وأعتقد أن جوهر البدوي بأكمله يكمن في ذلك. إنها إحدى تلك الشخصيات، التي تتسم بالوحشية بلا شك، والتي أردنا تجسيدها في شخصية علي بن محمد زريعة، زوج مبروكة. وإذا بدت كلماته الأخيرة كأنها صادرة عن مسلم سيئ متمرد على مشيئة الله، فليؤخذ في الاعتبار أنه بدوي فظ، ينسى بسهولة الشريعة المقدسة.

رواية مبروكة





مقدمة: الزفاف

يا قصبة[8]، ويا طبال ويا دربوكة رنانة غنوا بصوت واحد، لِقِران مبروكة. من الجمل البارِك[9] الذي يحمل الجحفة،[10] أيتها الفتيات والنساء، شكّلن الموكب متعدد الألوان؛ تكريماً للزوجين السعيدين، اصرخن بلا انقطاع: يويويويويويويويويو.[11]

في سرب صاخب، خيالة متوقدون ينطلقون فجأة، كتفاً لكتف يديرون المكاحل المدخنة،[12] التي تطير في الهواء وهي تدور وسط الشمس والغبار إنه التمجيد الحربي إنه الهجوم المهيب والمجنون يويويويويويويو. ها هو علي، في أثوابه الطويلة. الـ حايك والـ قندورات تشتعل كالأعلام،

8- قصبة (Gosba): ناي طبال (Tobal)، دربوكة (Darbouka): طبول خاصة.

9- بارِك (Baraqué): أي جالس على ركبتيه (بَركَ).

10-الجحفة (Jaffa): هيكل خفيف، محاط بالقماش، على شكل هرم مقطوع، توجد تحته العروس محجوبة عن الأنظار.

11-يويويو: صيحة فرح تطلقها النساء العربيات بنبرة حادة، وبصوت واحد عادة.

12-المكاحل (Mekabel): بندقية (جمع مكحلة).

والأعنة تقعقع، وذهب التطريزات وذهب السروج يرسل نيراناً لعب البارود[13] هذه هي ألعاب الخيول والبارود أقدِموا أيها الخيالة، ببرانسكم الواسعة... يو يو يو يو يو يو يو.

أعراف الفحول وذيولها الطويلة تصفّر في الهواء الذي تجلده. وتحت ضغط الأعقاب، تمزق شفرات الركائب الفضية خاصرة الدواب؛ إنها تطير. والخيالة البرونزيون يندفعون أمام النساء اللواتي يستبد بهن الوجد ويخبئن تحت الـ تكريتة[14] عيونهن الكبيرة المتقدة والناعمة... يو يو يو يو يو يو يو....

13-لعب البارود (Lab el baroud)

14-تكريتة (Takrita): غطاء رأس تقليدي (منديل) كانت تلبسه النساء في تونس وشمال أفريقيا. (المحرر)



الفصل الأول: تعبد

يا سيدي، أنت يا من تجعل البارود يتكلم دون أن تطرف عيناك السوداوان، أنت يا من تطوع الفحول لإرادتك، وتكسرها بضغطة من ساقيك، وتجعلها تجلس على قوائمها الخلفية بحركة معصم على اللجام، يا علي، أنت يا من تعبر الـ بلاد فاتحاً، سريعاً ورهيباً كريح الشهيلي[15]، يا علي، حين أتأملك وأعجب بك، كم أفهم عظمة وجمال الله.

وأنا هي من أصبحت رفيقتك، والأم القادمة لأطفالك، يا علي، ملك الـ السبيب والجنوب. فالحمد لله. ومع ذلك، أي رعب كان رعبي، يا علي يا حبيبي، حين صرتُ لك لأول مرة ليلة عرسنا. آه. أي رعب مجنون.... حين طرحتني أرضاً، وركبتاي عند وجنتيك السمر، حين ثبتت عيناك المتوقدتان نظرهما فيّ، واختطفتني ببرقهما، اعتقدتُ أنها أغضبتك، غضبة لم يكن لدي عنها أي فكرة بعد والتي جمدتني رعباً. ماذا فعلتُ؟...

15-الشهيلي أو الرياح الحارة هي التسمية في تونس و شرق الجزائر لأحد أنواع الرياح التي تسمى في باقي مناطق الجزائر بالسيروكو وفي ليبيا بالقبلي وفي المغرب بالشرقي.(المحرر)

تساءلتُ. لأستحق هذه الغضبة. وفجأة أطلقتُ صرخة ألم كبيرة... ثم.. ثم غبتُ في إحساس لذيذ، إغماءة شهوانية، لم أكن أريد الخروج منها أبداً... ثم، كنتَ أنت زوجي... ولم أعد أخاف.

يا علي، يا سيدي، يا ملكي. أي أطفال رائعين سأعطيك. أي أطفال رائعين إن شاء الله. طوالاً مثلك، نحافاً وعضلاتهم قوية مثلك... سأعزهم مثلك والذين، أخشى، أن يتركوني، مثلك، من أجل المغامرات والخطر. أوه. يا علي. حماك الله. ولتهدِك حكمته. وليسمع الصلاة المتوقدة لخادمتك، يا علي.



Fragment d'une inscription en caractères koufiques.
Texte incomplet, très difficile à déchiffrer.

الفصل الثاني: عائشة، صديقة العاشقات

يا علي، انظر إلى تلك العجوز التي تمر، محطمة تماماً أمام بيتنا... ألا تعرفها؟...

لا. حسناً، أريد أن أخبرك عن مهنتها القبيحة، هذه الساحرة.

ذات مساء، وبينما كنتُ متلفعة بخماري بعناية كما تركتني كنتُ ذاهبة إلى النبع، فاستوقفتني:

مبروكة، قالت لي ستتزوجين علياً، في غضون أيام قليلة. الله. سيبارك اتحادكما. ولكن، إذا كنتِ، لسوء الحظ، قد أصغيتِ، بالفعل، لبعض الغاوين اسمعي جيداً، يا مبروكة إذا كنتِ، بالفعل، قد قبلتِ لمسة رجل اسمعي جيداً، يا مبروكة وفي ليلة زفافكم، اذا لم يستطع دم العذرية أن يلطخ قميصك فسيحدث، في اليوم التالي، الطلاق المهين، يا مبروكة.

لذلك، ودون أن تسألك عن سرك، تعرض عليكِ العجوز عائشة،

الصديقة الكبرى للعاشقات مقابل دورو واحد
اسمعي يا مبروكة، مقابل دورو واحد، هذا لا شيء
أن تمنحك الحيلة التي تعيد للمفضوحات عذريتهن،
مبروكة، إن قميصك الملطخ بالدماء سيعلن، حتى في وجه الله أن علياً قد ضمّ عذراء بين ذراعيه حقاً.
اسمعي يا مبروكة.
خجولة وغاضبة، يا علي الحبيب، طردتُ العجوز.
فليلاحقها الجن[16] ليلًا ونهاراً وليدمروا كل كذبها.
مبروكة، العذراء، لم يكن لها شأن بحيلها. وأنت تعرف ذلك، يا سيدي، أنت الذي حُزتني، كلياً، في تلك الليلة الجميلة،
أوه يا علي. وحق الله. اطرد العجوز عائشة اطردها، بلا رحمة. ألا تحوم أبداً، بعد الآن، حول مبروكتك، لأن النحس يمشي على خطى عائشة.

16- الجن /الجنون (Djenoun) جمع جنّ: شياطين الفضاء.



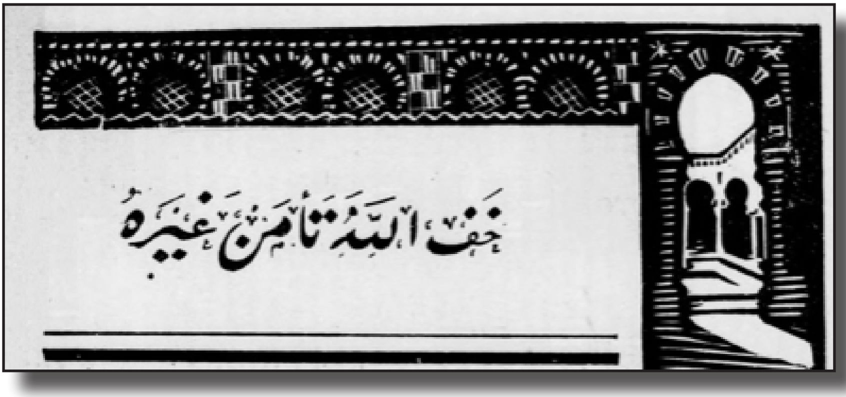
الفصل الثالث: البيت المعطر

سيعود علي قريباً من ركبته البعيدة، سيعود علي وقلبي لم يعد يطيق مكانه، سيعود علي.... هذا هو الفراق الأول، منذ قرابة شهر من الزواج، وقد عانيتُ منه حتى عضضتُ على قُبضتيّ. لم أبكِ كثيراً، لأن ذلك يجعل المرء قبيحاً... وإذا كان عليّ لن يجدني جميلة بعد الآن؟.. أي شيء مرعب هذا.... لكن لا، مرآتي تطمئنني. أطيل عينيّ، وأحييهما بالـ كحل، وأسناني ناصعة، وشفتاي متوقدتان، وأصابعي الطويلة، الممشوقة، أظافرها اللوزية مخضبة بالـ حناء. مبروكة لا تزال جميلة.

وحق الله. أي رائحة شنيعة تحوم هنا.... هل غزت الشياطين منزلي؟ ماذا لو كانوا هم الجن الذين استدعتهم العجوز عائشة؟ كم أخافها تلك العجوز، المحطمة والساخرة.... لحسن الحظ، لدي أعشاب معطرة بسرعة لنحرق منها، في أوانٍ ممتلئة، لعل غيومها الزرقاء تطرد الجن

الأشرار. ليفحّ العرضاوي، والجاوي، والكَماري[17] وليشتمّ حبيبي، عند عودته، في هذا الهواء العطِر، لمسة حبي.

17- الكَماري (Comori): الـ كاسكاريل (Cascarille) (محبوب جداً).



الفصل الرابع: الكلمات الغامضة

نهارك سعيد يا عائشة... ليكن الله معكِ... وليعطِكِ من كل صنوف الخير...

اسمعي مبروكة المسكينة... اذهبي،

إذا كنتُ قد أبعدتُكِ عني أحياناً، فذلك لأنني لم أكن أدري ما أفعل. اسمعيني يا عائشة، يا حكمة الله. ماذا عليّ أن أفعل؟ علي مريض، الحمى تنهشه وأنا أشعر أنني أموت لكوني هنا، عاجزة، إلى جانبه، وهو يتألم كل هذا الألم.

شكراً. أنتِ طيبة. بارك الله فيكِ... أنا أصغي إليكِ، يا عائشة العجوز الطيبة، أنتِ التي تشفقين على لوعتي. أنا أصغي إليكِ.... سآخذ بيضة دجاج، حسنٌ. وعلى هذه البيضة، سأكتب بـ القلم،[18] الكلمات الغامضة: قوش، مقواش، شلموش، شقموش، كويش، يتنكلى، يتنك...

نعم، لقد فهمتُ جيداً. ثم سأطهو هذه البيضة وأجعله يأكلها. بعد ذلك، سألف القشرة في خرقة وأجعله يحملها معه وسوف يُشفى، إن شاء

18-قلم (Kalam): ريشة مصنوعة من خشب النخيل.

الله..

شكراً، شكراً يا عائشة. سأركض لأشفي علياً، الذي يتألم كثيراً... شكراً... شكراً... الحمد لله. وليطل عمركِ بقدر بقاء النجوم... شكراً.





الفصل الخامس: الوسيطة عائشة

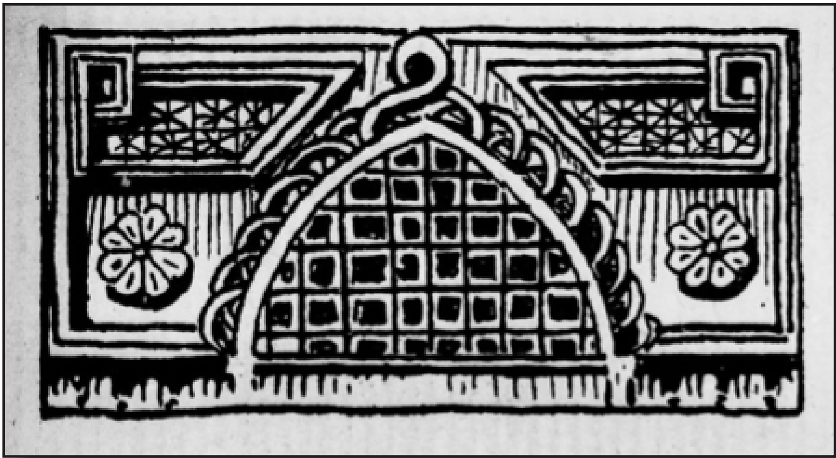
لقد شُفي علي بفضل تميمة العجوز عائشة... لقد جذبني إلى صدره وأعطاني فمه قُبلة لا أزال أحترق منها. الحمد لله. ولكن أي عذاب يسكن روحي. لو علم ما قالته لي العجوز عائشة، مساء أمس، قرب النبع؟... ماذا سأفعل؟... لا أزال أسمع صوتها، صوت الساحرة: يا مبروكة، لقد رآكِ الابن الأكبر للشيخ إنه يرغب في حبكِ إنه يريدكِ. سيعطيكِ مائة قطعة ذهبية، وأكياساً من الـ دورو... لكنه يريدكِ. وإذا لم تقبلي بأن تعطي نفسكِ له، فالويل لكِ.... يقول إنه رآكِ مؤخراً في خلوة مع كلب نصراني مع ضابط من المكتب العربي (1) أخذ منكِ قُبلة... وأن رأسكِ سيكون في خطر شديد، إذا علم علي بذلك... فكري وأجيبي عليَّ غداً، أو بعد غد... في غضون ثمانية أيام... ستجيبين وسيكون الجواب: نعم... يا مبروكة، أتسمعينني...

هذا ليس صحيحاً. لم أتلقَّ قُبلة من كلب رومي (2) وسأجيب: لا... لا... لا.... لأنني أحب عليّاً أكثر من حياتي... ولكن هذه عائشة المحطمة تخيفني وابن الشيخ هذا يذعرني. كيف أمكنني أن أطلب علاجاً من عائشة البشعة هذه؟



الفصل السادس: الأمل الكبير

الحمد لله العزيز الذي لطالما حلم به حبي، ليالٍ وأياماً، هو ذاك الذي أشعر به يختلج ويحيا في داخلي. سيكون جميلاً مثلك وسيُرجف أعداءه تحت نظرة عينيه العقابية (1). إنني أراه، منذ الآن، ملتحفاً ببرنسه... (2) فليُفضِ الله عليك كل نِعَمه. مَن يدري؟ ربما تطرد الكافر (3) وتُعيد قوته إلى شعب الله يا صغيري، يا محمد بن علي. ستكون بالنسبة لأمك الشجرة المقدسة التي تقضي في ظلها أيام شيخوختها. وحين تصبح هي عجوزاً طاعنة في السن، ستتذكر أغاني الحب التي هدهدتك بها، ستأخذها بين ذراعيك، بكل احترام، ستقبلها على شعرها الأبيض المصبوغ بالحمرة (4) وستنال أمك كل السعادة التي ترجوها من هذه الحياة بفضلك أنت، يا ابني العزيز يا محمد بن علي.



الفصل الثامن إنه اليوم المكتوب[19]

علي ليس هنا، وأنا أشعر أنه اليوم اليوم الذي حدده الله لمجيء ابني. ولم يشأ الله، كما حدث للأخريات كما حدث لـ نجمة، ابنة خالتي أن ينام[20] ابني في داخلي، عشرة، خمسة عشر شهراً وأكثر. اليوم، هو اليوم المكتوب أنا أشعر به ورغم آلامي العميقة، يشعر قلبي بفرحة لا أستطيع التعبير عنها إلا بـ: الحمد لله.

أه. أه. أوه.[21] يا صغيري، يا صغيري محمد بن علي. يا رقيقي، يا جميلي، يا قلبي. يا عصفوري.[22]

19-يبدوا أن هناك خطأ في الترقيم. (المحرر)

20- تشير مبروكة هنا إلى معتقد الراقد (L›enfant endorm) الذي كان شائعاً في تلك الحقبة، وهو الاعتقاد بأن الجنين قد يطول أمد حمله لشهور أو سنوات.(المحرر)

21- أهان (Ahan): هي المحاكاة الصوتية (Onomatopée) التي استخدمها المؤلف للتعبير عن أنين الزفيروبذل الجهد البدني أثناء الولادة. (المحرر)

22- طنان (Colibri): استخدم المؤلف كلمة كولبري (طائر الطنان) كلقب تدليل للصغير، وقد ترجمت(طنان)بعصفوري لتعطي نفس دلالة الطائر الصغير السريع الجميل. (المحرر)

أه. تعال يا جميلي. أه. تعال... آه... آه. يا صغيري، تعال. آه. آه. آه... محمد بن علي.

آه... أه. كم أتألم. أوه.

أنتن، أيتها الفتيات والنساء، أوه. أنتن، أيتها العجائز اللواتي يحيطن بي، هل تألمتن يوماً هكذا؟

أعطني التمائم (4) لأعلقها في عنقه، في كيس الجلد، ناوليني الأواني، حيث تحترق وتدخن البخور العطرة... أه... آه. كم أتألم...

أحرقوا البخور، لكي تُطرد الجن (5) الأشرار. ساعدنني... جميعكن... وأنا قابعة على هذه الحصيرة، أتلوى وركاي، وبطني يتمزقان... آه...

تعال يا جميلي، يا طنان، يا رقيقي، يا قلبي، يا عزيزي. يا صغيري. تعال...

آه. آه... محمد بن علي. وعلي ليس هنا... إنه يطير بلا شك، في هذه اللحظة، على حصانه الأشقر، عبر الفجاج الخطيرة لـ جبل القبلات الزرقاء... لكن ابنه، ابنه العزيز، المنتظر بشوق كبير، سيبتسم له باسطاً إليه ذراعيه الصغيرتين، حين يعود...

آه. آه... يا الله. أغثني... أيتها العجائز، أحرقن البخور ساعدنني... إني أموت، إني أموت... آه... آه... آه... يا عزيزي، آه... محـ... مـ... آه... آه... مد... بن علي... آه... إنني... أموت.



الفصل التاسع: الاستيقاظ الحزين

ماذا حدث لي؟ أين أنا؟ ما صرخة الطفل هذه؟ آه. لقد عرفتُ، لقد عرفتُ إنه ابني، ابني. يا الله، يا عظيم يا رحيم، تَقَبَّل فرحة روحي، يا الله أنت الذي أعطيتني صغيري، حبيبي. ابن علي.

هيا، احملوه إليّ بسرعة، أنتنَّ، أسرعن، لكي أتأمله، لكي أقبله، لكي أهدهده، لكي أغني له بلا نهاية:

على قلبي، يا صغيري،
يا رقيقي، يا قلبي، يا عزيزي،
نم، نم، نم، يا صغيري،
يا محمد بن علي.

ألا تسمعن إذن، أيتها السيئات، اللواتي تجعلنني أعاني بهذا الانتظار؟

... ولكن، لماذا أنتنَّ واجمات وصامتات؟ هل هو مريض، أوه. يا إلهي، هل هو مريض؟ لا، الله طيب، لن يذيقني العذاب... لا... أنتنَّ، أسرعن... ولكن لماذا لا تجبنني؟ إنه ابني، أريد أن أراه أريد أن آخذه، حالاً أريد ذلك نعم، احملوه إليّ.

على قلبي، يا صغيري

يا رقيقي، يا قلبي

يا عزيزي

نم، نم...

أعطوني... أعطوني بسرعة... ماذا قلتم؟.. أعطوني ابني العزيز. رقيقي محمد بن علي... أعطوني، أعطوني بسرعة. ماذا تقلن لي، أيتها السيئات، أيتها الساحرات الشريرات. أنتنَّ تردن قتلي ماذا قلتم؟... آه.... إنها بنت.



الفصل العاشر: ولادة البنات

عبر الفجاج الوعرة لـ جبل القبلات الزرقاء وصل علي وكانت الشائعات قد نقلت إليه أن زوجته وضعت بنتاً. لم أرَوجهه قط بمثل ذلك الشحوب يا الله، ارحمني. لم أرَقط مثل تلك الصواعق في عينيه. لم أشعر قط بمثل هذا الرعب في داخلي.

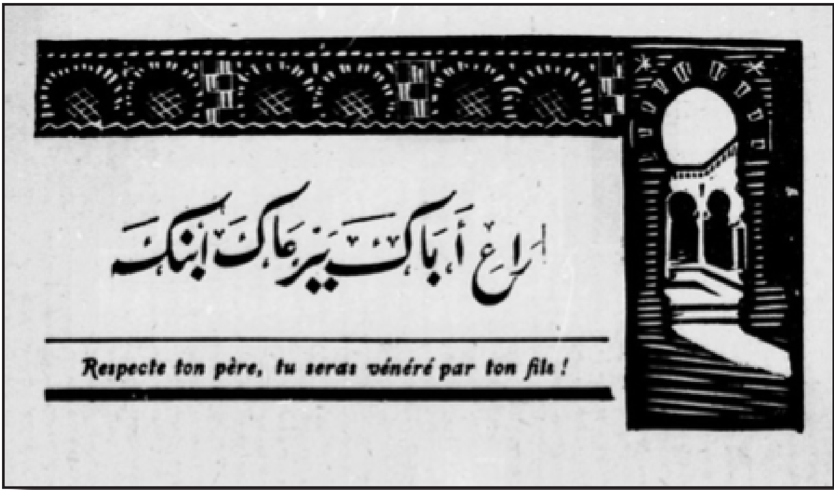
أحاطت به العجائز لتهدئته، فقد كانت غضبته مروعة رغم صمته. كنَّ يتحدثن، يتحدثن حتى أصممن أذنيه. أما هو، فكان واقفاً، منتصب القامة، عابس الجبين، دون كلمة، وكأنه ميتٌ يمشي على قدميه. يا الله. ماذا فعلتُ لكل هذا الشقاء؟ توقف الزمن مع الصمت لأن النساء، وقد تملكهن الذعر، صمتن الواحدة تلو الأخرى، ثم انزوين وقابعين بخوف في الأركان.

وفجأة، رمى بكلماته: إذن، صحيح... إنها بنت. ثم انفجر ضاحكاً، ضحكة مهبول. بنت... علي، ملك الصحراء، علي، الفارس الشهيلي، علي

الرهيب، ظهرُه من صوف[23] إنه عاجزعن إنجاب ولد... آه. آه.... سيضحكون في الجبل... سيضحكون حين يمر علي على جواده. سيشير إليه الشيوخ بأصابعهم، والشباب بابتسامة ساخرة سيسألونه: وحق الله. كيف حال ابنك؟

ظننتُ أن ساعتي الأخيرة قد حانت. أخذتُ بأظافري الحادة أحرثُ وجهي. وكان دمي يقطر على جلدي، على وجهي، وعلى عنقي، كأنه قلادة مؤلمة من المرجان. ومزقتُ شعري وعولتُ ككلبة تشم ريح الموت. اقترب علي. وبقسوة، وجه إليَّ صفعة، ثم فرَّ هارباً وهو يصرخ: وداعاً. يا ولاّدة البنات.

23-تعبير مجازي يقصد به الضعف أو العجز عن إنجاب الذكور، وهي إهانة قاسية يوجهها علي لنفسه أمام فحولته الجريحة بحسب منطقه.(المحرر)



الفصل الحادي عشر: مبروكة المباركة

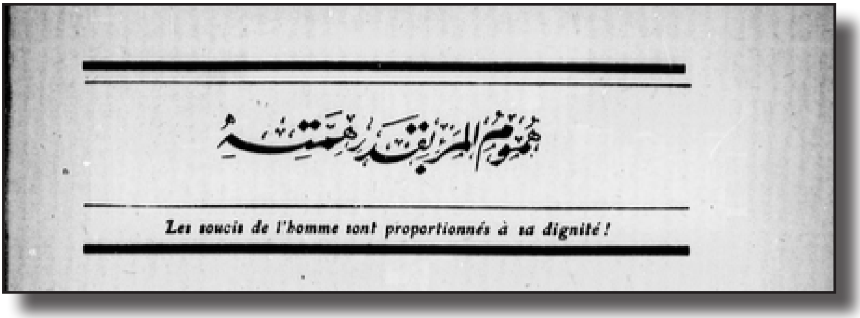
منذ ثمانية أيام، لم يَعُد علي. إن في قلبي صحراء والشهيلي قد أحرق كل شيء. لقد بكت عيناي أكثر من الينابيع. لا أستطيع لمس الطعام دون غثيان، وأشعر بأنني أموت. يا الله. اغفر لي لكنني أود، نعم، أود أن أموت. لماذا سماني والداي بهذا الاسم، مبروكة هذا الاسم الجميل الذي يحمل الحلم والأمل: مبروكة المباركة أوه. نعم، المباركة. كان لي زوج أعبده، أحبني لأسابيع قليلة. كنت أنتظر ابناً يجمعنا إلى الأبد ولكنها بنت الشؤم التي جاءت.

مبروكة. مبروكة.... سأسميها هي أيضاً مبروكة. بنت... ومع ذلك، يا للصغيرة المسكينة، إنها جميلة ورقيقة لها عينان تحويان ذهب النجوم ولا تبكي أبداً، رغم أنه لا يوجد من يعطف او يداعبها مسكينة، مسكينة الصغيرة. كيف ستكون حياتها، إذا كانت أمها تبغضها وبما أن الأب يرفض الاعتراف بها... ابنتي. يا الله. ويا جميع الأولياء الصالحين، تعالوا لنجدة مبروكة الحزينة. هل يمكنها أن تلعن هذه الطفلة الخارجة من لحمها، ابنة

علي، رغم كل شيء.

لستُ سوى مسكينة جاهلة، يا إلهي. لكنني لا أعتقد أنني أفعل شراً، مع ذلك، بحبي لطفلتي، ابنتي. أي أمر غامض هذا بالنسبة لرأسي الجاهل والضعيف؟ أبٌ يكره طفله لأن طفله بنت. بنت جميلة، رقيقة، نضرة كحرير الفجر الوردي، بفم صغير مبتسم، وعينين أكثر صفاءً وذهباً من نبع تحت الشمس، وتغريد كالعصافير، وجسد بضّ ناعم كثمرة يانعة. يا الله. إن كان شراً، فاغفر لي... لستُ سوى مخلوقة مسكينة، بلا عقل، بلا ثقافة... لكنني أحبها... ابنتي ابنتي التي لن أسميها مبروكة، خوفاً من أن تكون، لاحقاً، شقية مثلي.





الفصل الثاني عشر: إنه يغني

لقد عاد علي إلى البلاد (الدوّار)، لكنه هجر منزلنا. أشعر أن في رأسه فكرة واحدة فقط: أن يطلقني. إنه يُسْكِر نفسه بأشياء قذرة. إنه يدخن الكيف. إنه يركض مع فتيان السوء. يتسكع عند القهواجية، متصعلكاً مع اثنين أو ثلاثة من الكسالى ذوي السمعة المخزية. أين ينام؟ هل يفكر بأن له زوجة، وبيتاً، وطفلاً؟.. وعلاوة على ذلك، فإن البنت في نظره ليست طفلاً.

يا له من ألم.

قديماً، قبل محمد، النبي المقدّس صلوات الله عليه قديماً، كما يُقال، كانوا يقتلون البنات عند ولادتهن.... لولا ذلك، لَمَا كانت صغيرتي الجميلة هنا الآن بين ذراعيّ. لكان عزرائيل، ملك الموت، قد اختطفها من عاطفتي، ولكانت تنام باردةً إلى الأبد بعيداً عني... يا له من ألم.

إنني أسمع صوته... نعم... إنه صوته تماماً. إنه يغني، لكي يؤذيني بلا شك. إنه يغني... أوه. يا له من شرير، يا له من شرير... إنه يغني:

مَن يريد النهود،
فليذهب مع الحسان،
وليعبر الفجاج،
وليصرخ: يا أيتها الفتيات.

... لا تستمعي لهذا يا يمامتِي... لا تستمعي لأبيكِ وهو يغني مثل هذه الأشياء... يا جميلتي الصغيرة التي يرفض هو رؤيتها... أوه. كم أتألم... إنه يكمل غناءه:

أيها الطائر الأبيض
يا من تتبع القطعان...
من يريد النهود،
فليذهب إلى ‹فاطمة ليلية›.

فاطمة ليلية، امرأة بشعة بلا شك، تبيع الفتيات للرجال الضائعين... قلبي سيتفطر... لا يزال يغني:

... وجدتها عند النافورة (النبع)،
سقتني شربة ماء.
أمسكتُ بها من عنقها الصغير،
وقبلتها، على مهل...

ماذا سيحل بنا، يا صغيرتي العزيزة. لم يعد لكِ أب، ولم يعد لي زوج. لأن هذا الحال أسوأ مما لو كان ميتاً... إنه يغني... يغني:

... كنتُ ماراً في الطريق،
سقطت ‹شاشيتي›
وطار عقلي مني...
إنه يسافر مع ‹تراديث›.



Sachez que la vie de ce monde n'est qu'un jeu et une frivolité. (Koran)

الفصل الثالث عشر: مع امرأة أخرى.

عاد علي إلى المنزل... لكنه لم يعد ليقبل ابنته ولم يعد ليقبل زوجته أوه. لا. لقد كان لا يزال يدندن بتلك الأغنية الوضيعة: مَن يريد النهود، فليذهب إلى فاطمة ليلية..

اصفرَّ لوني حتى صرتُ أكثر شحوباً من الموتى حين رأيته. ضممْتُ صغيرتي بين ذراعيّ، خشية أن يهددها خطر ما وتراجعتُ إلى الزاوية الأكثر عتمة، أنتظر أن يكلمني.

أوه. ماذا قال لي؟... أتذكر، كلمة بكلمة، إهاناته:

... يا مبروكة، يا ولاّدة البنات، لقد عرفتُ لماذا لم يرزق علي منكِ بالابن البهي الذي كان يحلم به علي، الفارس الشهيلي، ليس ظهره من صوف.. لكنكِ خنتِني، أيتها المرأة القبيحة... خنتِني مع عثمان، ابن الشيخ وهو وأنتِ مَن أنجبتما هذه البنت....

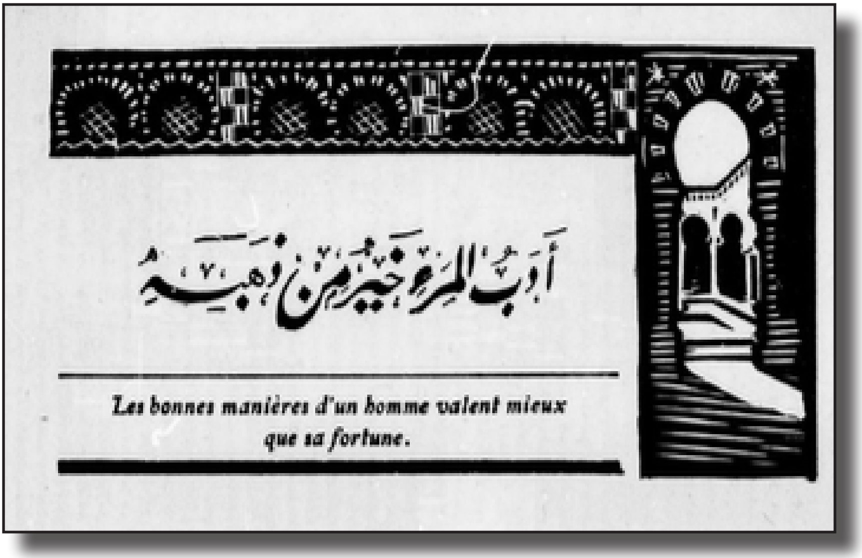
يمكنكِ الإنكار... لكني أعرف كل شيء. أعرف أنه دفع للأثيمة عائشة لكي تقوم بدور الوسيطة. أعرف أنها هي من رمت بكِ في فراشه. أنا أعرف... لهذا السبب كنتِ تحاولين تحذيري من عائشة. إنكِ محتالة ماكرة... لكني

أرى وأسمع بوضوح. عثمان مسطح الصدر، عثمان أمرد ولا قوة له.. عثمان لن ينجب ولداً أبداً وكان يجب أن يزوجكما لبعضكما.

ضُمي ابنتكِ بين ذراعيكِ... واحمليها بسرعة إلى عثمان، ليعترف بها كابنة له.

كان بإمكاني قتلكِ أنتِ وابنتكِ، كان بإمكاني ذلك... لكني سأكتفي بالصفعة التي وجهتها لكِ عند عودتي. لا أريد أن أحطم قصص حبكما... اذهبي وانجبي البنات مع عثمان، أما أنا فسأنجب الأبناء مع امرأة أخرى أبناءً جميلين وأقوياء، ينظرون إلى الشمس في وجهها ويروّضون الخيول الجامحة وهم يلعبون وداعاً.

مَن يريد النهود،
فليذهب مع الحسان،
وليعبر الفجاج،
وليصرخ: يا أيتها الفتيات...



الفصل الرابع عشر: المغامرة الدموية

جاءت لزيارتي منصورة العجوز، وهي أكثر قدماً وانكساراً وتجاعيد من عائشة. نادراً ما تدخل إلى هنا، وقد تساءلتُ عما جاء بها. لا أعرف السبب حتى الآن، لكنها روت لي قصة سأحلم بها بالتأكيد، برعب، في الليالي القادمة.

قالت لي: قديماً، في جهة الشمال، عندما كنتُ أتتبع زوجي من بلاد إلى بلاد لرعي ماعزنا وغنمنا، عرفتُ امرأة شابة تُدعى ‹ميمونة›، كانت تشبهكِ. كانت جميلة؛ عندما تفتح عينيها، فكأنما الشمس تشرق. كانت أهدابها طويلة ومقوسة مثل سعف النخيل. كانت مشيتها رقصاً، وشعرها إذا أسدلته على كتفيها حلَّ الليل. كانت قد تزوجت من بدوي رَحَّال يُدعى ‹عَمور›، وهو فارس فظ كان يهرب التبغ خفية، وكان الروم يراقبونه عن كثب. لذا كان ‹عمور› يكنُّ للروم كراهية شديدة.

وحدث أن ‹ميمونة›، بوساطة من إحدى ‹الخاطبات› (الوسيطات)،

وافقت في ليلة كان فيها ‹عمور› يجوب البلاد، أن تأتي إلى بيت ضابط المكتب العربي. وعادت إلى هناك عدة ليالٍ. ولا بد أن أحدهم لمحها، لأن ‹عمور› علم بخيانتها بعد مدة قصيرة. ولم يكن غضبه صاخباً، بل توجه إلى تونس، لدى زعماء الروم، وفعل المستحيل حتى نُقل الضابط إلى مركز آخر.

لكن ذلك لم يكن كافياً لـ ‹عمور›؛ فكراهيته لزوجته كانت بلا رحمة. وفي يوم من الأيام، لم يَعُد أحد يرى ‹ميمونة›. ولم يجرؤ أحد على الحديث معه عنها أو سؤال عن أخبارها، لشدة ما كان ‹عمور› واجماً وعنيفاً. مَرَّت أسابيع، وإذا بشخص يروي ذات يوم ما يلي:

تلقى الضابط الرومي الذي نُقل من مكانه، ذات صباح، طرداً ملفوفاً بعناية. فتحه بحضور المترجم، وفجأة، أطلق صرخة مدوية. لقد كانت رأس ‹ميمونة› تتدحرج أمامه. وكانت هناك كلمات قليلة بالعربية على ورقة تقول: كنتَ ترغب بها، لقد أخذتَها فاحتفظ بها الآن.

غادرتني منصورة بعد ذلك، وهي تكرر بإلحاح:

يجب على المرأة المسلمة أن تكون وفية.



الفصل الخامس عشر: عائشة مجدداً

مَن هناك؟.. إنها أنتِ، العجوز عائشة أنتِ من تجرؤين على تخطي عتبة داري، بعد أن ألقيتِ بالبؤس عليَّ وعلى طفلتي. الله يسامحني ولكن ارحلي، ارحلي أيتها البائسة. ارحلي أيتها الساحرة فأنتِ أقبح من حاتم [24] ارحلي.

اسمعي يا مبروكة. أنتِ لا تدركين مدى الخير الذي أريده لكِ وتتحدثين إليَّ كالمجنونة. لستُ أنا السبب في مصائبكِ أبداً، بل أريد تنويركِ وربما إنقاذكِ. لقد نقلتُ إلى عثمان، ابن الشيخ، رفضكِ وأنه لا أمل له فيكِ مهما كانت تهديداته. بدا وكأنه رضي بالأمر، لكني أعلم الآن أنه عمل بخفية لانتزاع قلب علي منكِ.

أنتِ تكذبين يا عجوز عائشة. من أجل حب الدورو تقومين بكل

24-(حاتم: غراب البين/الفراق).

الأعمال القذرة؛ لا أعرف أي خطة تتبعين الآن، لكني أشعر... أنكِ تكذبين.

لا ، أنا لا أكذب. عندما بقي علي في جبل القبلات الزرقاء، نام عند سعد، الذي يدعي أنه مرابط. سعد صديق لعثمان، وبالاتفاق معه، جعل علياً يتناول دون أن يدري شربة (2) مخصصة للقضاء على حبه لكِ. أنتِ لا تصدقينني... أقسم لكِ بالله. أقسم لكِ يا مبروكة أن سعداً جعل علياً يشرب السلوان (3) أقسم لكِ... فشعر علي فوراً بانطفاء كل حب لكِ في قلبه. ربما لو كان طفلكِ ولداً، لما أثرت الشربة فيه تماماً، ولكن واأسفاه. لقد أنجبتِ له بنتاً.

حسناً. اسمعي للعجوز عائشة، فهي أيضاً عرافة. اكتبي الكلمات التالية على ورقة، وضعيها في كيس من جلد واحرصي على خياطتها في ثيابه. إذا حملها معه دون علمه، سيعود علي إليكِ. اكتبي يا مبروكة:

علوش، علوش. عرشرش. عرشرش. عرشرش. من تفوش. من تفوش. نشروا. نشروا. راطرشي. راطرشي. تعال يا ميمون.[25] تلطف وكن مجيباً، تعال إلى مارثا بنت الأرض، التي عيناها في أطراف أجنحتها. غيّر قلب علي، وأزل غشاوة الكره القائمة بينه وبين مبروكة. واجعله كالكلب الذي يلهث، سواء ضُرب أو دُعب.

وإذا لم تنجح هذه الوسيلة، سنجعله يتناول السبد.[26]

إلى اللقاء.... لاحقاً ستشكرينني يا مبروكة.

25 ميمون: جني قوي

26-السبد: عقار نجس وهو نتاج عرق وغدد شرجية لقط. رائحته كريهة جداً، ويستخدم أساساً لجلب محبة الأشخاص المرغوبين. (المحرر)



الفصل السادس عشر: الورقة السحرية

هذه العجوز عائشة، رغم كرهي لها، تؤثر فيَّ... يجب أن أحاول كل شيء لاستعادة علي... كل شيء... كل شيء... من أجلي... ومن أجل ابنتي الصغيرة، الرقيقة جداً والشقية جداً، دون أن تدرك ذلك بعد....

آه. لو أن هذه الورقة السحرية، إذا ما خِيطت في برنوسه، تعيده إليّ.... كم سأنسى دموعي بسرعة.... ثم، مَن يدري؟ لعل الله يرحم أمَته... لعل الله يرزقني بالابن العزيز الذي سيصالحنا إلى الأبد....

ولكن، كيف أخيط هذه الورقة في ثوبه وهو لا يأتي أبداً إلى منزله... كيف؟ مهما كلفني الأمر، سأطلب هذه الخدمة من عائشة. إنها ماكرة بما يكفي لتقترب منه... هي الوحيدة القادرة على إنقاذي.

لدي هنا ثلاث قطع جميلة من الدورو الفضية، تلمع كالأقمار: سأحملها إليها، هذا المساء، عند حلول الظلام. ثم سأبقى في بيتي، أتلو الصلوات، وربما، ربما، بعودة علي، سيعود الهناء... إن شاء الله.





الفصل السابع عشر: صلوات

لقد تم الأمر.... يا صغيرتي الجميلة التي لا تستطيعين بعدُ إلا الثرثرة كعصفور صغير، صلي مع أملكِ، صلي مع مبروكة، المباركة الشقية جداً. صلي، بعينيكِ اللتين يشع منهما النور، صلي، بأصابعكِ الجميلة الممتدة نحو السماء، صلي، بفيكِ الأعجم الذي لا يعرف بعدُ اسم الله القدوس. صلي، بابتساماتكِ المزهرة، صلي، بروحكِ الزرقاء الصغيرة... صلي، بكل ما فيكِ، أيتها الصغيرة البريئة، فربما أنتِ أكثر حكمة وقوة من أملكِ عند ربي كل شيء.... صلي... لعل النبي الكريم يسمعنا، لعل الله يستجيب لنا....

نحن الآن في عزّ رمضان. لقد بدأ الصيام الكبير. لن يخالف علي الشريعة الإلهية. خلال هذه الأيام المهيبة، لن يسلم نفسه للرذيلة الفاضحة، ولا للمومسات المصبوغات والمزينات، ولا لـ الكيف... لن يجرؤ على غناء: مَن يريد النهود... ولا ارتياد مسكن فاطمة ليلية...

لو كان ذلك ممكناً، فليتَه يعود.

ليتَه يتقدم نحوي، ويقبلني، ويأخذني بين ذراعيه كما في السابق. لن

أوجه له عتاباً واحداً.... سأغمره بحبي كأنه صوف ناعم، وسأقول له وأنا أقبل يديه السمروابن:

الحمد لله... أنت السيد.





الفصل الثامن عشر: فتاة السعادة

لقد عاد.... لقد عاد، مرتين، إلى بيته. واأسفاه. لم يوجه لي كلمة واحدة... دخل واجماً، دون حتى إلقاء السلام الذي لا يمكن أن يبخل به أبداً على أكثر المخلوقات بؤساً. كنتُ قد رفعتُ حجابي.

جلس هناك، صامتاً، منكمشاً في برنوسه. ثم وضع جبهته على يديه. ومن صلاة الظهر إلى صلاة العصر ظلَّ محتفظاً بالجمود نفسه. كان كلبه رابضاً عند قدميه. أما أنا، فقد كنتُ جامدة مثله، أراقبه، يتملكني تارة الرعب... وتارة الأمل.

... ولكنه رحل، ولم يوجه سوى النداء لكلبه: تعال.. ومع ذلك، أقول إن هذا يُعدُّ، رغم كل شيء، القليل من السعادة لمبروكة المسكينة.



الفصل التاسع عشر: تلك التي ستكون أماً لأبنائي

كنتُ في البيت، رتّبْتُ كل شيء، على أمل أن يعود. أحضرتُ من النبع أزهاراً بكثرة، وضعتها في القلال (الخابيات) لكي لا يكون بيتي إلا مبتسماً، رغم الحداد الذي في قلبي. أحرقتُ في الأواني بخور عطرية لطرد الجن. وكانت روائح إكليل الجبل الذي يحبه كثيراً تتطاير كأنها أرواح صديقة. كانت صغيرتي الجميلة تثرثر بلا توقف إلى جانبي وهو فأل حسن بينما كنتُ أطحن الشعير تحت الرحى، والكسكسي ينضج على النار. كان ريح ناعم يكلمني عن الآفاق الزرقاء البعيدة التي تطوق الأفق. كانت الشمس تضع العيد فوق الأرض. وكان أذان المؤذن لا يزال يرتعش في الفضاء... لا إله إلا الله....

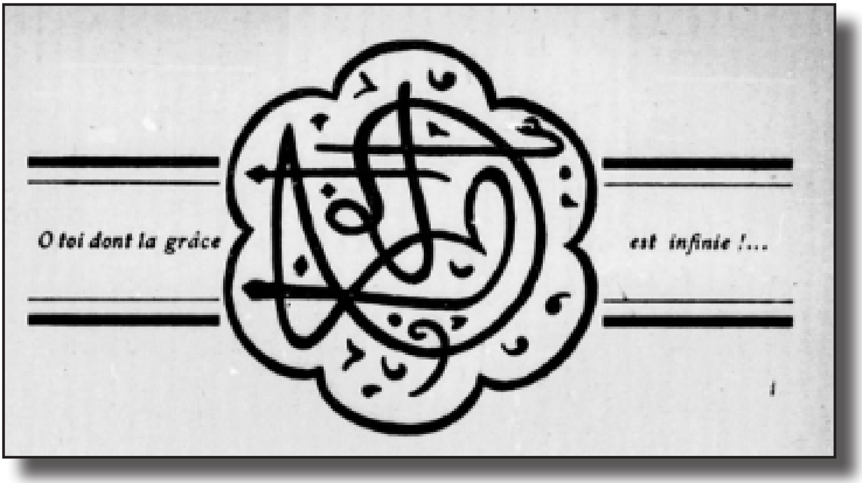
دخل... نهضتُ وذهبتُ للقائه، مستعدة للارتماء على صدره. لكنه قال:

لا بد أنكِ كنتِ تنتظرين عثمان... حتى صار البيت كله فرحاً هكذا؟

جمدتني نظرته.... وتابع وهو يشير إليّ:

هاتان الغرفتان، ستكونان منذ الآن لكِ ولابنتكِ... أما بقية المنزل فستكون لـ فاطمة بنت سعد، زوجتي الثانية... تلك التي ستكون إن شاء الله. أماً لأبنائي.





الفصل العشرون: أغاني الحب

قضيتُ أسبوعاً من النزع الأخير... لكنه لا شيء مقارنة بالعذاب الذي أحتمله الآن. هما هناك، كلاهما، علي وفاطمة... كلاهما، باستمرار بين ذراعي بعضهما البعض. في كل ساعة، أسمع صوت قبلاتهما، وكلمات حبهما. مرحهما لا يبالي بألمي... ربما، حتى، الألم القريب جداً منهما، يزيد من لذتهما... ربما فرحهما مصنوع من نزعي.

يا صغيرتي، يا صغيرتي الجميلة، لو لم تكوني هنا.... أنتِ التي كنتِ سبباً في بؤسي الشديد وأنتِ اليوم تعزيتي الوحيدة.... لكان عزرائيل قد حملني سريعاً في كفن أجنحته السوداء المبسوطة. الله أكبر... لا إله إلا... حان الوقت... لنصلِّ...

دائماً، دائماً، أسمعهما... لم يمنحني أبداً أسماءً ناعمة كالتي يغازل بها فاطمة... لم يغنِّ لي أبداً تلك الأغاني التي تعلمها في أسفاره... تلك الأغاني المليئة بالشجن التي تجعل المرأة يغمى عليها حباً وهي تسمعها من فم سيدها:

يا صاحب الأجنحة الزرقاء، أرجوك، يا حماماً جميلاً، طر في الهواء نحو الشعانبة، واسأل عن ‹متليلي›.

أيها الطائر الرقيق ذو الأجنحة الزرقاء، هل تأتيني بجواب؟ يا حمام، هل لا تزال ريح الحب تهب في قلب الصحراء؟

مَسعودة، أنا مقيد بجديلتكِ، كما يقيّد العبد الأسير بذيل الحصان. ستجرينني حيثما شئتِ، حتى إلى الجريمة. أنا غريق في عينيكِ الكبيرتين كما يغرق السابح في التيار، لا أدرك الهاوية: عيناكِ تخفيان عني حتى الموت. الدم الذي يتألق به فمكِ، سأدفع ثمنه كل دمي. عندما يبتسم فمكِ، يتوقف قلبي عن الخفقان من الفرح... عزيزتي، عزيزتي مَسعودة.

أسمع رنين المجوهرات التي يحضرها لها بكثرة... أنا التي ليس لي منه سوى هذا الخاتم وبعض الحلي البسيطة التي لا قيمة لها... المنقوش،[27] المسايس،[28] البزيمة[29]، الخلخال،[30] والسكاب،[31] كلها تزينها بشكل رائع... رأيتُ أيضاً الصندوق الفاخر، المزين بالزهور والتذهيب، الذي ستوضع فيه كل كنوزها وعطورها. سعيدة، سعيدة أنتِ يا فاطمة....

أنتِ من كان يجب أن تُسمى ‹مبروكة›... وهو يغني، يغني، دائماً منتصراً، عاشقاً وقاسياً.

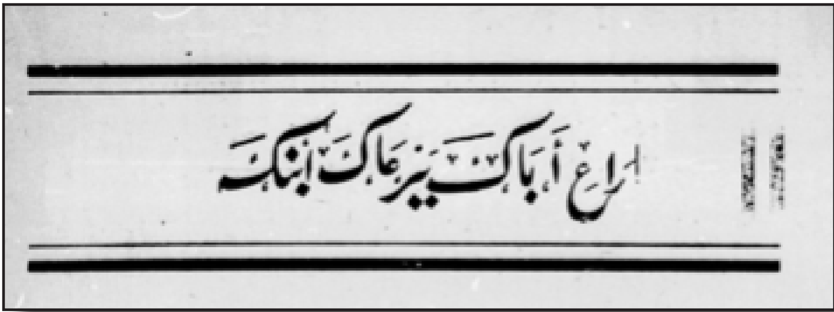
27- المنقوش: قرط الأذن.

28- المسايس: أساور.

29- بزيمة: مشبك مزين بسلاسل.

30- خلخال: حلقة كاحل من الفضة.

31- سكاب: عقد من قطع الذهب أو العنبر



الفصل الواحد والعشرون: عائشة، دائماً.

جاءت العجوز عائشة الأثيمة بالأمس، مدفوعة بلا شك بفضول خبيث. اصطدمت بـ علي الذي لم يعد يغادر المنزل تقريباً منذ زواجه بـ فاطمة.

صاح علي بمرح: أهلاً عائشة... السلام عليكِ يا عائشة.

انحنت العجوز في سلامات متملقة.

تابع علي: جئتِ من أجل مبروكة... لا بد أن معكِ لها كلمة غزل من عثمان، يا رسول الحب الجميل... اذهبي، اذهبي، لا تخجلي، مارسي مهنتكِ... فلا بد للمرء أن يعيش، والدوروات لا تسقط من السماء مع هبوب ريح الشهيلي... اذهبي...

ثم انفجر علي يغني بقوة:

يا من لم تنجبوا بعد،
اتركوا لي نصيبي.
اتركوني حتى الفجر أنام معكم،
وسيكون قلبي راضياً.

أنت، يا من تريد امرأة،
بع بغلك،
وستتزوج فتاة جميلة
بعينين مكحلتين.

قالت لي عائشة هامسة: لا. هذا ليس ممكناً. العجوز تراقبنا. (تقصد فاطمة أو غيرها).

ثم سمعتُ فاطمة تقاطعه:

اصمت يا علي... هل تريد قتلها إذن؟ (تقصد مبروكة).

فاطمة مثيرة للشفقة... كدتُ أقذف كانوني،[32] بكل ما فيه من جمر مشتعل، على رأس العجوز عائشة... فالبؤس يسير في ركابها.

32- الكانون: وعاء فخاري ثلاثي القوائم يستخدم كمجمرة أو موقد لطهي الطعام



الفصل الثاني والعشرون: صبراً، يا جوادي العزيز

هل فرحة البعض هي جزية تُدفع من شقاء الآخرين؟...

كان علي يغني في الجانب الآخر. لم تكن هذه المرة أغنية حب. شعرتُ به قد استبد به ذلك الجوع إلى الفضاء، تلك الحاجة لركوب الخيل بجنون... كان يغني:

صبراً يا جوادي الجامح. صبراً،
يا من تفجر تحت حوافرك النجوم من المسالك الحجرية،
صبراً... سنرى الجبل مجدداً.

ستنشر لواء عرفك
في ريح الصباح الوردي المنعشة،
وفي لفحات نار الشهيلي...

صبراً... صبراً يا جوادي العزيز.

رنين لجامك الذي تلوكُه في فمك بعصبية،
هو عندي عذب كصوت السلاسل،
والأساور وخلاخيل النساء الجميلات.
صبراً يا جوادي العزيز.

بعد لحظة، كان يتفحص سرجه ذا التطريزات الثقيلة. ثم رنا بنظره بعيداً، بعيداً نحو الدائرة الزرقاء للأفق... نحو جبل القبلات الزرقاء.

اقتربت فاطمة قلقة: علي... هل تشعر بالملل بجانبي؟

أخذها بين ذراعيه وهو يغمرها بالقبلات:

أنتِ تعرفين كم أحبكِ... ولكن لا بد ذات صباح أن أنطلق نحو الجبل.. الرجل ليس امرأة.. وبالعيش دائماً في المنزل يضعف... كوني هادئة بعد يومين سأرحل وسأعود سريعاً جداً.

لم تجب فاطمة، مستسلمة. وبعد ساعة، وبينما كنتُ وحدي خلف الحاجز، سمعتُ نشيجها. أمن الآن بدأ البكاء؟



الفصل الثالث والعشرون: الرحيل

رحل علي عند الفجر. بعد رحيله، بكت فاطمة، بكت لساعات طويلة. ثم، مدفوعة بقوة لا أدري ما هي، دخلت عندي.

السلام عليكِ يا مبروكة.

وعليكِ السلام يا فاطمة.

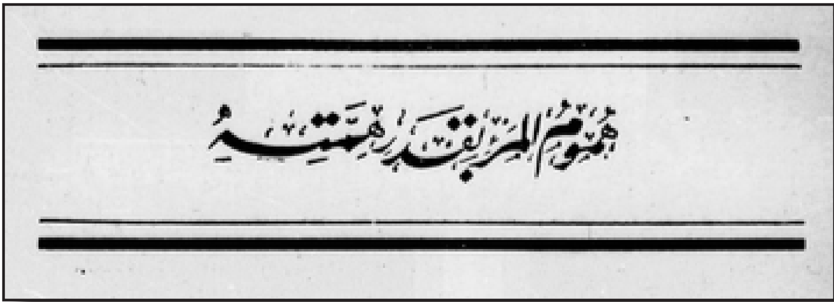
أخذت فاطمة بيدي برفق، ونظرت في عينيّ ملياً وقالت:

مبروكة، أنا أعلم الآن كم تعانين... ولا أريدكِ أن تصدقي أنني سعيدة بأساكِ. علي لا يعرف ألم النساء. إنه قاسٍ دون أن يشعر. إنه يحبنا... لكنه يحب جواده أكثر. يحب الركض المجنون أكثر، ويحب ‹جبل القبلات الزرقاء› أكثر. ماذا يحب فيَّ أكثر مما يحب فيكِ؟ بلا شك هو الأمل في الولد الذي يريده...

واأسفاه. ماذا لو أعطيتُه أنا أيضاً بنتاً.

وبينما نحن نبكي معاً، تعانقنا... ولما رأت طفلتي الجميلة دموعنا، بدأت تبكي هي الأخرى معنا، دون أن تفهم شيئاً.





الفصل الرابع والعشرون: الله أعلم بما يعلم.

أصبحت فاطمة تأتي لرؤيتي كل يوم. نبكي ونصلي معاً ولستُ متأكدة مما إذا كنتُ أنا أيضاً قد صليتُ لله ليرزقها بولد الولد الذي سيحطم، وإلى الأبد، أي أمل في عودتي إلى علي. يا لنا من مخلوقات مسكينة بلا قوة... أي تيار يحملنا وفق مشيئته.

الله أعلم بما يعلم وكل شيء مكتوب. فلماذا الاضطراب؟ ولماذا الصراع؟ لا أعرف أي مشاعر أكنّها لفاطمة؟ تارة أغار منها وأكرهها. وتارة أبكي معها وأشفق عليها... وتارة أريد أن أكون غير مبالية: فألقي بنفسي في حب ابنتي الصغيرة، وألتهمها بالقبلات. لكن صغيرتي الجميلة تبتسم لفاطمة بمجرد ظهورها... ولا أعود أعرف ماذا يجري في قلبي. مبروكة، مبروكة المثيرة للشفقة، ما أنتِ إلا ريشة في العاصفة. اتركي نفسكِ للتيار فإرادتكِ لا يمكن أن تكون إلا إرادة الله. ومهما حدث لكِ، انحني، وضعي جبهتكِ في الرمل، وتمتمي مستسلمة: الله غالب... الحمد لله.



الفصل الخامس والعشرون: أختان

يوماً بعد يوم، يتعلق قلبي أكثر بفاطمة بـ ضرتي بتلك التي تملك اليوم قلب علي. إنها تثير الشفقة ورقيقة جداً. لو فقدت علي، ستكون أكثر ضياعاً مني. صرتُ أخشى عليها هذا البؤس، وكأنه يهددني أنا نفسي.

إنها، تقريباً، أخت لي، أخت تعزني، ولا تملك إلا الكلمات الطيبة لآلامي. إنها تنوّم أوجاعي... أبتسم حين أراها تلعب مع صغيرتي، لشدة ما هي شابة وطفولية في كلامها وحركاتها. آه يا فاطمة.... لماذا لسنا أختين حقاً، متحدتين بقوة، بدلاً من أن نكون ضرتين تفصل بيننا الحواجز؟... لماذا تلهث قلوبنا خلف خطى جواد مجنون يحمل هناك فارساً أبيض، يرفرف برنوسه مع النسيم ولا يقول أبداً: قف.

آه يا فاطمة.



الفصل السادس والعشرون: العودة الأسطورية

.صعدتُ إلى السطح لأستنشق هواء الصباح. كانت الشمس تشرق، والنخيل يتمايل بريح خفيفة. بدأ الأطفال يقودون الماعز والغنم نحو المراعي. شعرتُ بضيق أقل في هذا السلام الصباحي.

فجأة، ضجت القرية. وعند النبع، التفتت النساء اللواتي كن يتحدثن بصخب نحو مسلك الغرب. تبعتُ نظراتهن فرأيت علياً يظهر على جواده، يرافقه جمل يقوده جمّال رث الثياب، جمل محمل بالزرابي الزاهية والأشياء البراقة.

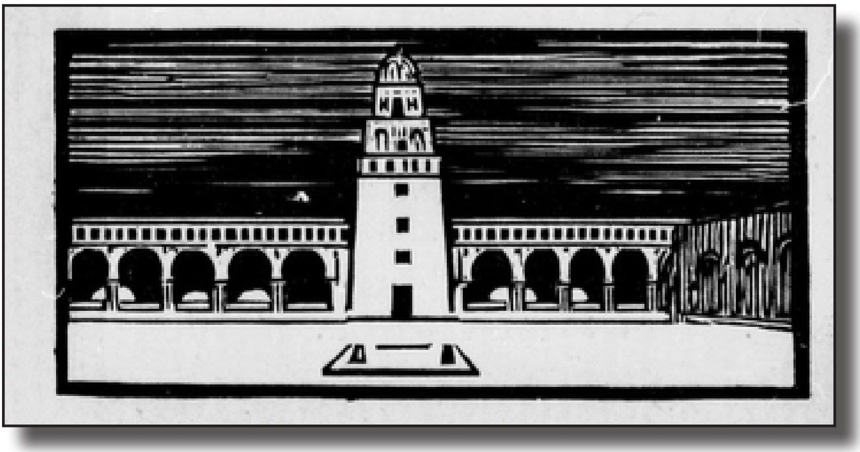
سرعان ما وصل إلى البيت، يتبعه أطفال القرية ورجال يسألونه بفضول. فأجاب باقتضاب:.إنها هدايا لفاطمة. دُفع الجمل إلى الساحة، وأُغلقت الباب، وأناخه الجمّال. لم أصدق عينيّ من كثرة الأشياء الرائعة؛ بسط خضراء وسوداء وبيضاء وحمراء بلون الحريق، ثم جلود، ووسائد، وبلغات، وأحذية نسائية من جلد.الفيلالي،[33] سيقانها العالية مطرزة بألوان مدهشة.

كانت هناك أيضاً بروشات (دبابيس) طرابلسية، وأنابيب للتمائم، و

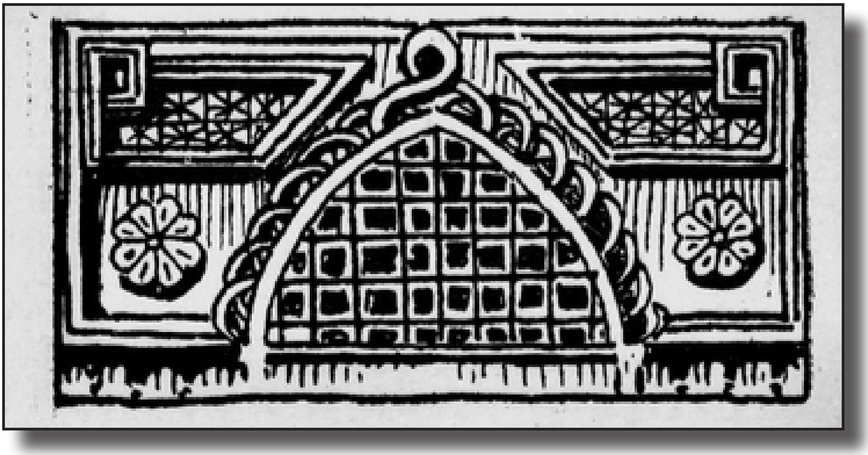
33- Filali (فيلالي): جلد فاخر من منطقة تافيلالت بالمغرب، مشهور بجودته. (المحرر).

حروز، و مبخرة كالتي رأيتها عند مرابط كبير، و مكحلة ذهبية مزخرفة، و مرود من قرن الغزال للكحل، ولد الظربان [34] مرصع بالفضة، وهو تميمة تستخدمها المرضعات لحماية أثدائهن.

كانت هناك حرير و فوط و حايك بلمعان لم أرَ مثله قط. من فوق السطح، كنتُ أتأمل هذا العرض بصمت والدموع ترتقي لعينيّ. كانت فاطمة تصرخ دهشة وفرحاً وصرخات حب أيضاً أخذ علي رأسها وقبّلها قبلة بلا نهاية وهو يقول:.كل هذا لكِ يا فاطمتي العزيزة. هل ستظلين غاضبة مني بسبب أيام غيابي القليلة؟



34 مخلب حيوان الظربان، يعتقد في الفلكلور الشعبي أنه يشفي تشققات الثدي للمرضعات.(المحرر)



الفصل السابع والعشرون: علي.. آكل المسافات

.بالتأكيد، كانت فاطمة سعيدة جداً بكل هذه الهدايا... لكن فرحتها انكسرت برحيل علي الجديد. بقي لها الحرير والحلوي والعطور... وكل ذلك جميل وناعم كذكرى الأيام السعيدة.

أشك في أن علياً كان كريماً هكذا فقط لكي يُغفر له رحيله الجديد. علي.آكل مسافات... أفهمه الآن أكثر من أي وقت مضى؛ البيت ليس له. إنه بدوي لا يستقر. يلزمه الخيمة، وسهل الرمال والسماء، يفترش الرمل ليرقد مواجهاً النجوم، بينما جواده يأكل ويستريح بجانبه. نساء هؤلاء الرجال شقيات؛ فهم لا يتزوجون إلا للحصول على.ابن على الأقل... وإن لم يأتِ الابن، فما المرأة عندهم بشيء...

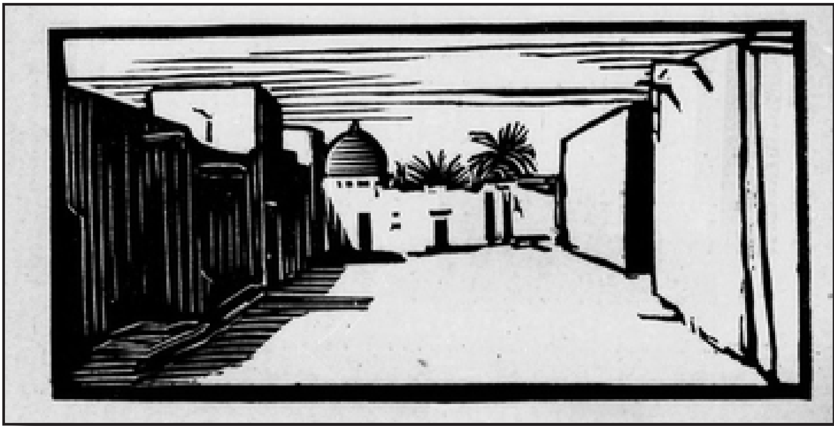
فاطمة... هل سترزقين بابن؟



الفصل الثامن والعشرون: الطفل هناك؟

بينما كنتُ أسأل نفسي هذا السؤال للمرة الألف، دخلت فاطمة؛ رصينة، مبتسمة، وسعيدة. ارتمت على عنقي وقالت بنبرة سرية:.الطفل هناك... لقد شعرتُ به.

اعتذرت لأنها آلمتني بإظهار سعادتها، لكنها لم تستطع كتمان مرحها. وبينما صعدت الدموع لعينيّ، أخذتُ صغيرتي الجميلة وقبلتها، خجولة من إظهار بكائي أمام.ضرتي العزيزة التي كان نجاحها يسحقني. عندما غادرت، أعادت لي ثرثرة ابنتي بعض السلام... الطفل هناك... نعم... ولكن يا فاطمة، هل سيكون ذكراً؟



الفصل التاسع والعشرون: قلق

رغم سعادتها، فاطمة قلقة دون أن تجرؤ على البوح. أشعر بذلك... كلما وقع نظرها على ابنتي، تظهر قطبة على جبينها وتصبح عيناها مهمومتين، هذا الصباح، لم تحتمل فقالت لي:

.ماذا لو أحضرتُ العجوز عائشة؟

.الله يحفظك منها يا فاطمة. البؤس يتبع خطواتها.

.إذن السوداء ميسرة؟ يقولون إنها ‹عريفة› ماهرة جداً.

.يا فاطمة، ليس عندي نصيحة لكِ... لعل النبي يحميكِ والله يهديكِ. أنا أخاف حقاً من هؤلاء العجائز.

.إنهن يعرفن الكثير... لو استطعتُ بفضلهن التأكد من الحمل بذكر... أعلم أن هناك مرابطين أولياء، لكنهم بعيدون جداً... آه يا مبروكة، كم أنا شقية في هذا الشك الدائم.



الفصل الثلاثون: العريفات

.ها أنذا الآن، في كل مناسبة، كاتمة أسرار.ضرتي السعيدة، زوجة علي المفضلة. ليس في روحي شر، لكن أحياناً تعتريني نوبات تمرد، ثم ألوم نفسي. لماذا لا يتركوني في سلام مع صغيرتي؟ لماذا لا أستطيع الغرق في ذكرياتي السعيدة القليلة في عزلة محترمة.

يا مبروكة المسكينة، حتى هذا ليس من حقكِ.

فاطمة تتبع فكرتها... جاءت عائشة، وجاءت السوداء ميسرة... وأخريات غيرهن... البيت امتلأ بهن. كأنه اجتماع العيساوية.[35] صلوات، تعاويذ، صرخات، وأدخنة لاذعة تتصاعد. يتم تحضير.أشربة (سحر) يجب على فاطمة تناولها....أشربة فظيعة سمعتُ عنها قديماً؛ مكونة من أجساد ضفادع، وأسنان كلاب، وأعين قطط، وأظافر ذئاب... وأي أشياء قذرة أخرى؟ رائحة.الجاوي تطغى على بقية العطور... فاطمة لا تملك ما يكفي من.الدورو والهدايا لإرضاء كل هؤلاء الساحرات، اللواتي بفضلهن ستحصل على ابن.

35- إشارة للطريقة الصوفية المشهورة في المغرب العربي، يقصد المؤلف هنا الصخب والطقوس التي تخللتها صرخات وبخور. (المحرر)



الفصل الواحد والثلاثون: وبعد ذلك... سيكون الأمل الكبير

لم أرَ فاطمة منذ يومين. لقد دخلتْ عليّ الآن، شاحبة، تترنح. كدتُ أطلق صرخة حين رأيتها على هذه الحالة.

.السلام عليكِ يا فاطمة... ما بكِ حتى غدوتِ بهذا الشحوب؟

جلستْ وهي خائرة القوى، ثم قالت بابتسامة حزينة:

.لا شيء... بالأمس، تألمتُ كثيراً وكم كنتُ سأعدّ نفسي سعيدة لو رأيتُكِ... لقد تناولتُ (شربة) جعلتني في هذه الحالة، لكني لا أشكو، لأن عائشة وميسرة وعدتاني بفضلها بالولد.

.الله يشاء الله يشاء.... لقد تألمتُ حقاً... ولا زلتُ أتألم كثيراً. كل شيء يؤلمني في داخلي... إحساس بالاحتراق والتمزق... ثم يدور رأسي، وتغيم عيناي... وتغزوني فترات من العرق البارد... لحسن الحظ أن هذا سيمر سريعاً... وبعد ذلك... بعد ذلك... سيكون الهدوء، والراحة، والأمل الكبير... أنتِ تفهمين يا مبروكة، لماذا لا أشكو من كل هذا الألم... لكني متعبة حقاً... اسمحي لي أن أرتاح عندكِ... بالقرب منكِ... فأنا وحدي، أخاف أن أموت. أنا أتألم، أتألم يا مبروكة.



الفصل الثاني والثلاثون: الغزو (الرازية)

القرية كلها في حالة غليان هذا الصباح. في الليلة الماضية، قامت (جماعة) من الفلاقة[36] بغزو نحو.بئردار الشعانبي، وسرقوا ثلاثة جمال وستين ماعزاً. الحراس، الذين كُبّلوا، أُلقي بهم في مغارات الجبل حيث عثرعليهم (القومية)[37]، بعد أن جذبتهم صرخاتهم اليائسة. خيالة من (المخازنية)[38] والقومية انطلقوا في أثر الجماعة، وكادوا يلحقون بهم. وإذ احتفظ (الفلاقة) بالجمال التي أجبروها على الإسراع، قاموا بقتل كل الماعز والجديان، ولكن بدلاً من تذكيتها قائلين:.باسم الله. ووجوههم نحو الشرق، قاموا بذبحها ووجوههم نحو الغرب، لكي تكون لحومها غير صالحة للاستهلاك لكل مسلم حق. ليت هذه الجماعة لا تأتي لتغزو ديارنا. الخوف عظيم هنا بين النساء، لأن الرجال سيسحبون (المكحلة)[39] وعندها ستكون الحرب وتكون المقتلة. ليت الله يتفضل بحمايتنا.

36- Fellagas (فلاقة): متمردون أو خارجون عن القانون.

37- Goumiers (القومية): قوات محلية نظامية كانت تعمل مع الإدارة الفرنسية.

38- Mokhazeni (المخازنية): خيالة الدولة أو الحرس.

39-البندقية

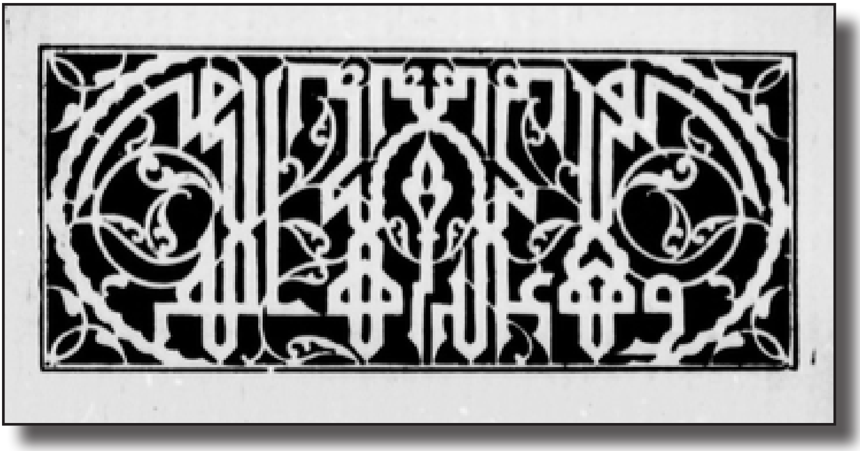
مبروكة

الفصل الثالث والثلاثون... طبل الموت.

روى علي، منذ لحظة، لفاطمة أخبار الغزو الذي حدث في تلك الليلة. كنتُ أسمع صوته من هنا، ممتلئاً بغضب مكتوم، وكنتُ أرتجف على راحة فاطمة.

كان يقول:.إذا جاؤوا لغزو قطعاننا هنا، فويلاً لهم. أقسم بالله. سيسمعون صوت البارود. لن يكبلوا علي بن محمد زريا كما كبلوا أولئك الحراس (النسوة)، وجوادي خلف أعقابهم سيدق إيقاع طبل الموت... أقسم بالله.

التصقت صغيرتي بي وهي ترتجف، وأنا نفسي شعرتُ بالشحوب يغزوني. كل هذا لا يبشر بخير.... فاطمة المسكينة، التي تتألم كثيراً، ليست في حالة تسمح لها بتحمل صدمات جديدة... ومتى سيأتي الولد؟.. اليوم يقترب، مع ذلك، إن سار كل شيء على ما يرام... لكن هؤلاء العجائز، عائشة، ميسرة، منصورة والأخريات، اللواتي لا يفارقن بيتها، يملأنني رعباً... رغماً عني، أردد هذه الكلمات المهووسة: البؤس يمشي في ركابهن.



الفصل الرابع والثلاثون: موت البشير

خبر فظيع... بعض الخيالة الذين طاردوا (الجماعة) وراء الحدود، عادوا لتوهم. إنهم يحملون جثمان. البشير بن محمد زريا، شقيق علي، قُتل برصاصة في وسط الجبهة. ماذا سيفعل علي؟... أنا وفاطمة يجب أن نخشى كل شيء من غضبه... كل شيء.... لقد عاد لتوّه. ناداني بالقرب من فاطمة وقال حينها:

فاطمة لا يمكنها مغادرة المنزل في حالتها هذه. اذهبي يا مبروكة، اذهبي وانضمي إلى النساء والندّابات. أخي البشير مات في القتال... الله سيقبله في ملكوته... لكن علياً سينتقم له، علي سينتقم له، وهو ينشد مع عنترة.[40]

الموت في عزّك، أيها الرجل الشاب،
خيرٌ من البقاء عبداً لعينٍ سوداء.[41]

40 شاعر محارب عظيم، ابن شداد (القرن السادس)، عربي من عصر ما قبل الإسلام، تشكّل حياته الرائعة، التي نقلتها الرواية الشعبية، ملحمةً حقيقية.

41- أقرب أبيات لعنترة في هذا المعنى قوله:

لا تَسقِني ماءَ الحَياةِ بِذِلَّةٍ... بَل فَاِسقِني بِالعِزِّ كَأسَ الحَنظَلِ
ماءُ الحَياةِ بِذِلَّةٍ كَجَهَنَّمٍ...... وَجَهَنَّمٌ بِالعِزِّ أَطيَبُ مَنزِلِ

اصفرَّ لون فاطمة تماماً... أما أنا، فقد توجهتُ إلى حيث النساء والندابات اللواتي يحيطن بجثمان البشير.



وايضا قول الامام الحسين بن علي:.الموت في عزّ خيرٌ من حياةٍ في ذلّ.(المحرر)


Le lion d'Allah !... Toujours vainqueur.

الفصل الخامس والثلاثون: جنازة

.انتهى غاسل الموتى من عمله.[42] كان البشير، شاحباً كالشمع، ممدداً وعلى جبهته النجمة الحمراء لجرحه المميت. مُلفّفاً في الكفن. الذي أحضره قديماً من مكة، كان ينام في ملكوت الله.

أمام الباب، كانت الندّابات والنساء ينتحبن، ويخمشن وجوههن بأظافرهن، ويقتلعن شعورهن، ويذرين الرماد والغبار في الهواء، كصورة تعبر عن قلة شأننا في هذه الحياة.

وعندما جاؤوا لحمل الجثمان، ووضعوه على المحفة مغطىً بعلم القبيلة، كان عليٌّ أول من أراد حمله. كان الرجال صامتين ومتجهمين. وكان

42- تتكون الطقوس الجنائزية من الغسل، وإزالة الشعر، وسد جميع الفتحات الطبيعية بقطن معطر بالكافور.

المرابطون يرددون:.الله. الله. الله..

انطلق الموكب بخطى سريعة. وكان الإمام والطلبة والمرابطون ينشدون بوقار:.لا إله إلا الله.. وكان الحاضرون يرددون:.... ونبينا محمد رسول الله..

كلما ابتعدوا، كنتُ أجهد نفسي لسماع ما يحدث. المقبرة قريبة، فاستطعتُ متابعة مراسم الدفن. وُضع الجثمان قرب القبر، ونادى الإمام بـ.صلاة الجنازة.

.الحمد لله الذي يميت ويحيي. الحمد لله الذي يبعث الموتى. كل إنسان وكل عظمة تعود إليه. له وحده الحكم والقدرة. هو فوق كل شيء.

اللهم. إن البشير كان عبدك. أنت من أوجدته، وهو مدين لك بالخيرات التي تمتع بها. أنت من أمتَّه. وأنت من ستبعثه حياً.

يا إلهي، أعطه القوة الكافية ليحاسب نفسه على أفعاله.... لا تضربه بما يفوق طاقته. نحن نرجوك باسم النبي الكريم وجميع أوليائك. آمين..

والآن، أنزل عليٌّ البشيرَ في القبر، ووجهه نحو مكة. وبمجرد الانتهاء من بناء مثواه الأخير، أُغلق القبر. وستجمع.الضيافة.[43] الأقارب والأصدقاء... وسينال المساكين حصة كبيرة من الكسكسي والمشوي[44] والتمر والزيت والتين.

أحضر عليٌّ حصان البشير بجانب حصانه، وبينما كان يربت على تلك الدابة الجميلة، صرخ بصوت قاسٍ:.سننتقم لصاحبك...

43- وجبة طعام.

44- خروف يُشوى كاملًا في فرن خاص.

خف الله تأمن غيره

الفصل السادس والثلاثون: إنذارات

البلد كله في حالة قلق: إنه الإنذار المستمر. تنطلق مجموعات من الخيالة كل يوم نحو الجبال لمراقبة الممرات. وأُعيدت القطعان إلى جوار القرى. والحراس مسلحون. إنها الحرب.

عليٌّ في حالة هياج متزايد. يختفي لأيام، ويظهر على فترات نادرة، يقبل فاطمة ويرحل مجدداً بعد أن يعيد ملء حزامه بالخراطيش وقارورة البارود.

فاطمة تبكي وتتألم وسط ساحراتها اللواتي يقتلنها. بطنها ضخم، لكن وجهها هزيل ومؤلم للنظر. تصاب بنوبات إغماء تدوم طويلاً، طويلاً جداً. في ذلك اليوم، ظننتُ أنها ستموت في غرفتي: انتابني رعب شديد... ابنتي الصغيرة، حين فتحت فاطمة عينيها الغائرتين والمحاطتين بالهالات، ارتمت على عنقها وقبلتها بجنون، كأنما تشكرها على عودتها للحياة، هي التي أصابها الرعب لرؤيتها جامدة وشاحبة.

ضمتها فاطمة إلى قلبها وقالت لي:

.إن بنتاً جميلة وناعمة وطيبة كابنتكِ، لا بد أنها تواسي قلب الأم كثيراً... قولي لي يا مبروكة... ومع ذلك، فهم يريدون ذكوراً... ذكوراً..



الفصل السابع والثلاثون: لقد أُخذ ثأر صاحبك

لقد وقع اشتباك في الجبل. عاد المخازنية والقومية بأسير واحد وقتيلين لم يأخذهما الفلاقة..

الأسير قبض عليه عليٌّ. وأحد القتيلين سقط بيده. عليٌّ يزهو... كان يمتطي حصان أخيه.

عند عودته، نزع السرج بنفسه، وداعب الحصان طويلاً، وأعطاه وجبة مزدوجة من الشعير حتى قبل أن يقبل فاطمة، ثم صاح:

.اليوم، أخذت بثأر صاحبك..



الفصل الثامن والثلاثون: العريفات والطبيب

.لقد شعرت فاطمة بآلام المخاض الكبرى. إنه اليوم الذي يجب أن يأتي فيه إلى العالم الابن المنشود.

إنها تتألم لدرجة أنها لم تعد تعرف أي وضعية تتخذ. وجهها مائل إلى الخضرة. تطلق عواءً كعواء الكلبة، تخنقه بعضِّ طرف.حايكها.. يدها التي تتشنج فوق يدي تؤلمني... قالت لي:

.أشعر أنني سأموت... يا مبروكة، أرجوكِ باسم الله. لا تتركيني..

عذابها مستمر منذ ساعات. الساحرات العجائز، عائشة والأخريات، اللواتي تم استدعاؤهن، هنّ هناك، لكن ممارساتهن بلا أثر. حقاً، فاطمة في حالة سيئة للغاية. الطفل، رغم جهودها، لا يخرج...

طُلب الطبيب.الرومي.بعد تردد طويل. إنه رجل أسمر، ملتحٍ، يضع نظارات على أنفه. عند رؤيته للعجائز، هزرأسه بملامح غيرراضية. سألهن بالعربية:

.ماذا سقيتم هذه المرأة؟.

أرادت العجوز عائشة أن تشرح له أن فاطمة ترغب في ابن، وأنهن

حضرن لها.أشربة.(philtres)... قاطعها.الطبيب.بحدة:

.ألا يعلم الله ما يفعل، حتى تتدخلن في مثل هذه الأمور؟.

لم تعرف عائشة ما تقول... والأخريات لزمن الصمت.

اقترب.الطبيب.من فاطمة التي كانت تتراجع خوفاً:

.لا تخافي،.قال لها،.لا أريد إلا إراحتكِ... لا تخافي. أنا رومي، لكن مهنتي هي أن أجتهد في شفاء آلام البشر المساكين. أنا أهب نفسي لهذا بكل قلبي. إلهكِ هو الله... وإلهي هو الرب ببساطة... لكن الله والرب ليسوا إلا إلهاً واحداً... لا تخافي من الطبيب الرومي يا فاطمة. الطبيب يعالج والله هو الشافي..

بكل رفق، فحص فاطمة، بدقة ولفترة طويلة. وبعد برهة، ازداد وجهه الصارم تجهماً... تمتم قائلاً:.لقد جعلتها هؤلاء العجائز تجهض....

بعد ساعة، وضعت فاطمة جثة ابن ميت..





الفصل التاسع والثلاثون: الفرار إلى الصحراء

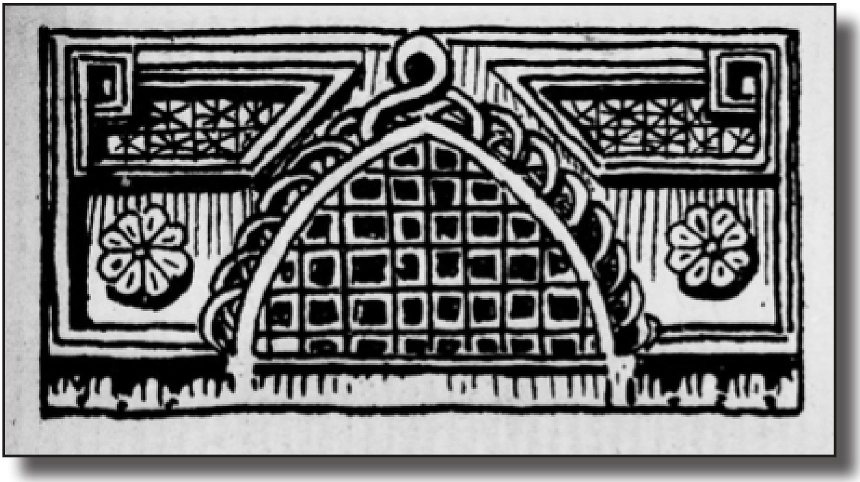
علي، الذي أُخبربأن زوجته توشك على الولادة، أقبل مسرعاً بينما كان الطبيب يهمّ بالخروج. وجدا نفسيهما وجهاً لوجه. قال له الطبيب:

.يا علي، تشجع. لقد أعطاك الله ابناً... لكنه مات... الخطأ يقع على العريفات (arifas) اللواتي سممّن زوجتك بأشربتهن... انتبه، فقد يقتلن فاطمة أيضاً بنفس الطريقة... فاطمة مريضة جداً... كن رحيماً بها..

لم يجب علي. دخل الغرفة، وانتزع من الحائط سوطاً من الجلد، وجلد به بوحشية عائشة، والسوداء، والأخريات، وهو يصرخ:

.إلى الخارج، أيتها الكلاب... لعنة الله عليكن..

ثم، ودون كلمة واحدة لفاطمة التي كانت تنازع الموت، خرج، وقفزعلى خيله، وانطلق يعدوبجنون في قلب الصحراء.



الفصل الأربعون: الطبيب الرومي

فاطمة في حالة سيئة للغاية. كل يوم، يأتي الطبيب الرومي لزيارتها. يا لَلفارق بينه وبين هاتيك العجائز الملعونات اللواتي قتلن ابنها... وربما قتلنها هي أيضاً... إنه يحضر الأدوية، ويجعلها تتناولها، ولا يريد حتى دوروا واحداً مقابل رعايته.

يقول لها بصوت ناعم:

استعيدي عافيتكِ أولاً يا فاطمة...

الله سيكافئني، هو الذي يمسك كتاب أعمالنا..

تبكي فاطمة، وتُقبل يده خلسة.

إذن، هؤلاء الروم، هؤلاء الكفار الذين نكرههم، ليسوا جميعاً أشراراً....

حين كنتُ صغيرة، كنتُ أتخيل أنهم لا يريدون لنا إلا الشر....

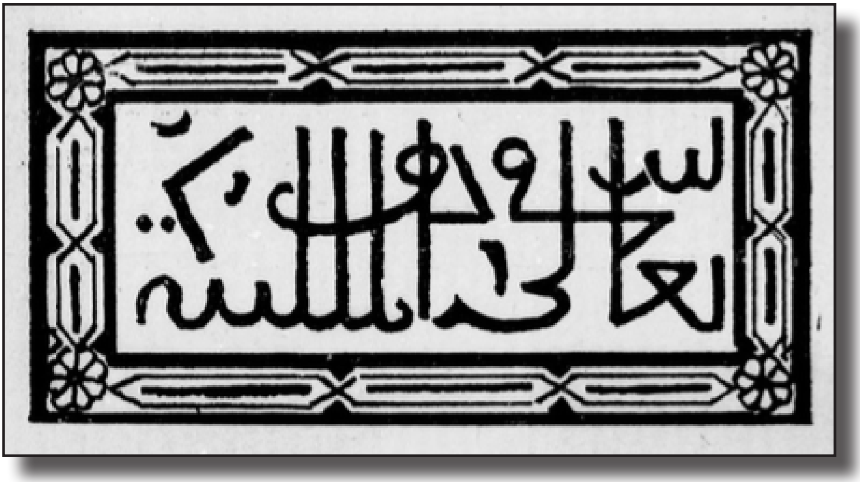
كم هي معقدة هذه الحياة بالنسبة لرأس امرأة فقيرة جاهلة ضعيفة؟..

إن.الطبيب.طيّب، كأفضل مرابطينا،

طيّبٌ بلا غرض...

أنا وفاطمة لم نلتقِ قط بين بني جلدتنا بمثل هذه الطيبة، ومثل هذه الرقة، ومثل هذا الاهتمام...





الفصل الواحد والأربعون: نجاة فاطمة

.قال لنا.الطبيب.اليوم وهو يبتسم:

.لقد نجت فاطمة أخيراً.. الطبيب قدّم العلاج، والله قد شفى.. أيتها النسوة، اشكرن الله..

نظرتُ أنا وفاطمة إلى بعضنا البعض. ودحرجت دموع غزيرة في أعيننا. لا نعرف ماذا نقول لشكر هذا الرجل. ارتميتُ على عنق فاطمة وقبلتها. ثم، وكلانا تطأطئ عينيها، تمتمنا:

.شكراً، أيها الطبيب... شكراً جزيلاً... لعل الله يحفظ أيامك من أجل خير مرضاك..

أراد أن يمد يده لطفلتي، لكنها هربت وهي تطلق صرخات ذعر كبيرة. وعند رحيله، نطق.الطبيب.بهذه الكلمات التي لم أدرك معناها بعد:

.يا له من سوء حظ، أنني لا أستطيع أن أجعل نفسي مفهوماً... ومع ذلك، فإن الطيبة هي اللغة التي يجب أن يفهمها الجميع، وأن تمحو كل ريبة، وتزيل كل سوء تفاهم... بَه. (عجباً)، الله والزمن هما المعلمان الأكبران.



الفصل الثاني والأربعون: المطارَدة

.ماذا سيحدث أيضاً.... لقد عاد.الفلاقة.. في الليل، باغتت (الجماعة) الحراس، وجردتهم من سلاحهم، واقتادت خمسة وثلاثين جملاً وقطيعاً من الماعز. لقد حدث هذا منذ ثلاث ساعات بالفعل... وأخيراً، جاء أحد الحراس ليُحذر... ركب (القوم) خيولهم... وانضم إليهم الفرسان المتطوعون... وعليٌّ، طبعاً، كان من بينهم... انطلقت الفصيلة بالعدو السريع في الليل، تبحث عن آثار لصوص القطعان.

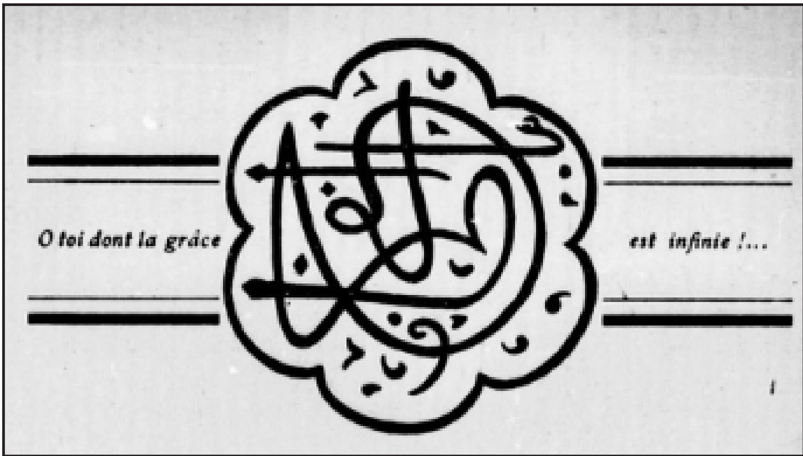
الليل مظلم ومليء بالغيوم. تظهر القمر تارة، ثم تختفي تارة أخرى. ماذا سيحدث أيضاً؟

أنا وفاطمة وطفلتي، نبقى ساهرات في الليل... نلتصق ببعضنا البعض، خائفات، منصتات لأدنى ضجيج، لا نجرؤ حتى على الكلام. ماذا سيحد ث ؟

أسمع صوت أحد المتأخرين وهو يسرج حصانه ليلحق بالفرسان. هو أيضاً يغني للبارود والحرب:

.إن الحصن الذي ستبنيه من الصخور، لن يحميك من الموت....

إلهي. ماذا في دماء كل هؤلاء الرجال؟.. إنهم يركضون نحو الموت كما يركضون نحو عشيقة... كل هذا من أجل بعض الماعز وبعض الجمال..





الفصل الثالث والأربعون: القتال

.فاطمة... هل سمعتِ؟.. إنها المكاحل (البنادق) التي تطقطق في الليل، هناك، نحو الجبل... لعل الله يحمي رجالنا. هل نصعد إلى السطح؟.

تسلقنا إلى أعلى المنزل. ومن هناك، عندما كان القمر ينجلي، كنا نلمح المدى الشاسع. فجأة، استؤنف إطلاق النار ورأينا بوضوح الوميض الأحمر يندفع من البنادق. كانت المواجهة قد بدأت بين.الجماعة.(djich) والفرسان: وعند الفجر، ستغطي الجثث أرض المكان.

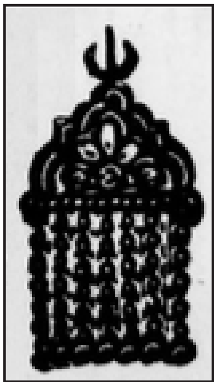
حصان البشير، الذي بقي في الإسطبل، بدأ يصهل، شاعراً بالمعركة بلا شك. لقد جمدنا صهيله.

على أسطح المنازل المجاورة، كانت هناك ظلال تتحرك. إنهن النساء، قلقات مثلنا. وبأعين مذعورة، كن يتأملن ثعابين النار التي تخدش الليل، ويصغين إلى الانفجارات التي تغني للموت. كانت كل واحدة تسأل نفسها إن لم تكن، في هذه الساعة، قد أصبحت أرملة.

كان العواء الطويل للكلاب التي لا حصر لها يزيد من ذعرنا؛ فنباحها لم ينقطع. وعندما دوت آخر طلقة، كان الصبح قد بدأ ينبلج. كنا نرتجف

من البرد، لكننا لم نفكر في الدخول. واحدة تلو الأخرى، بدأنا نميز الجارات. وبإشارة من اليد، كنا نلقي عليهن السلام، وبصمت، واصلنا جُهدنا لرؤية ما يحدث في الأفق.

وأسفاه. لم نكن نرى شيئاً..





الفصل الأربع والأربعون: العودة.

كانت الشمس قد ارتفعت بالفعل في الأفق، ولم نفكر في مغادرة السطح. وأخيراً، هناك بعيداً، بعيداً جداً، ظهرت سحابة من الغبار، سحابة تشبه تلك التي تدفعها ريح الشهيلي أمامها عندما تهب بغضب.

كانت تقترب ببطء. كنا نجهد أنفسنا، دون جدوى، لنميز بشكل أفضل. ولم نلمح إلا بعد وقت طويل فرقة من الفرسان تسير بخطى وئيدة. كان هذا المسير البطيء نذير شؤم جنائزي. بالتأكيد هناك جرحى، وربما موتى...

بقينا قرابة ثلاث ساعات نتابع بأعيننا مسير هؤلاء الرجال وهؤلاء الخيول نحو القرية. ثلاث ساعات بقينا فيها لاهثات، وتدور في رؤوسنا ذات الأفكار الجنائزية.

وصلت الفرقة إلى القرية... كان الفرسان يتقدمون مثنى وثلاث، ودائماً بنفس الخطى الوئيدة. وفجأة، رأيتُ علياً... كان على صهوة جواده... وعن يمينه وعن شماله، كان هناك فارسان يحيطان به، ولكن بطريقة ضيقة جداً، لدرجة أنه بدا مسنوداً على أكتافهما...

أطلقت فاطمة صرخة مدوية... لقد رأت هي أيضاً.



الفصل الخامس والأربعون: ساعة القدر

توقف الفرسان أمام الباب. نزل أولئك الذين كانوا يسيرون في الخلف عن جيادهم وتقدموا. كان عليٌّ، جامداً كجثة، مسنوداً من قِبل رفيقيه، وكان لونه كالشمع. كيف أنزلوه عن جواده؟ لا أدري... عندما نزلنا من السطح، كانوا قد مددوه بالفعل على فراشه. كان صامتاً، وجهه منقبض تحت وطأة الألم، وظل بلا حراك. سمعتُ همساً علمتُ منه أن رصاصة اخترقته، من جانب إلى جانب، عند مستوى أعلى الفخذ. وفي تلك اللحظة، وصل الطبيب الرومي. وأصبحت نظرته المثيرة للشفقة مبتسمة لكي يطمئننا. طُلب منا الخروج.

وعندما خرج الطبيب بدوره، رصدتُ إيماءة منه: لم أكن بحاجة لتعلم المزيد.



الفصل السادس والأربعون: النَّزع الأخير

بقينا، أنا وفاطمة، منتبهتين عند رأس عليّ، لكي لا نفارقه لثانية واحدة.

كان هناك (دواء) جعله الطبيب يتناوله، وقد أنعشه قليلاً. جال ببصره من واحدة منا إلى الأخرى، ببطء. ثم، بتلك الفظاظة التي كانت مألوفة لديه، قال:

.هذا المساء، سأكون قد مت....

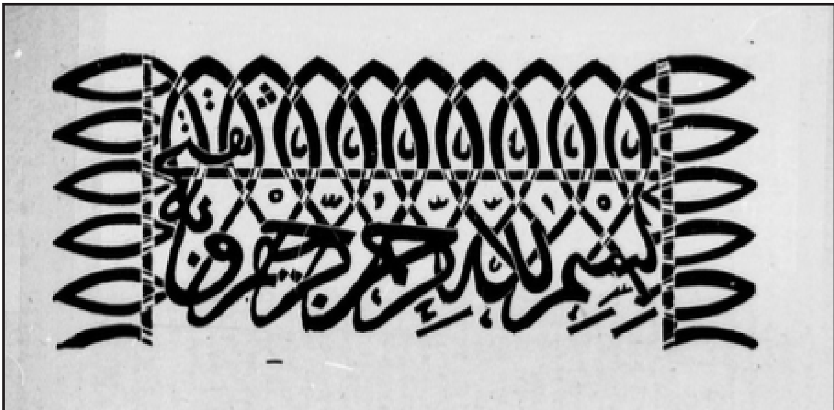
أغمض عينيه، وقد أرهقته هذه الكلمات القليلة، وظل على تلك الحال لفترة طويلة. كنتُ أنا وفاطمة نبكي بدموع غزيرة، بيأس. عاد وفتح عينيه وقال:

.لو أنكما أعطيتُماني ابناً... لكان انتقم لي.

....

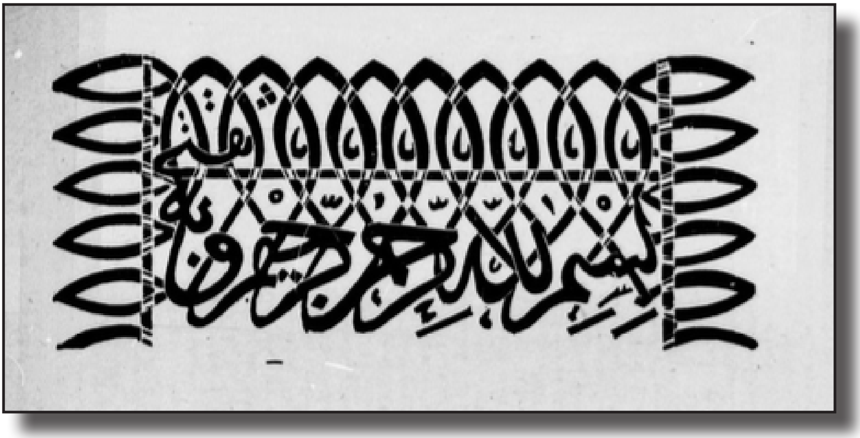
انتهت رواية مبروكة





رواية نجمة





نجمة

بعد السير المتواصل في الغبار الأبيض لطريق طباشيري، يلتوي عبر السهوب القاحلة، التي لا يبهجها إلا جزر الشعير الخضراء المتناثرة هنا وهناك، وصلت القافلة العسكرية إلى واحة مارث.. بدت لنا الواحة، الممتدة على يمين الطريق ويساره، ببئرها، وجدول مائها للماشية، وحانتها، ونخيلها المليء بالتمور البنية والذهبية، وكأنها فردوس ساحر. بعد تحديد مكان التخييم،

أمرتُ بنصب الخيام، وتنظيم أعمال جلب الماء. وسرعان ما أكدت النيران المشتعلة على عجلة الجميع في تناول الغداء بسرعة، من أجل الاستراحة في قيلولة طويلة مُجَدِّدة للنشاط من تعب الطريق. وفي اليوم التالي، قرابة الساعة الثانية صباحاً، سنفك المخيم للانطلاق في مرحلة جديدة. سارع العرب للمجيء وعرض منتجاتهم على الجنود، دجاج، وبيض، وتمر، وتين، وبطيخ. كانت المساومة حادة ومضحكة:

صديقي لا أستطيع... ترى... أربعة سردي (4 قروش)، ليس غالياً... بيضتان.

هل تريد سردوك جيد.. فرنك ونصف (fr. 5o 1)، انظر.. جيد، جيد.. مليح.. ممم....

كان العربي، بدافع الحذر، يمد يده مفتوحة دون أن يترك البيض أو الدجاج، لأنه بالنسبة له، كل الجنود هم جويو.[1] والـ جويوينسون أحياناً دفع ثمن ما يشترون. وصلت النساء أيضاً، لكنهن بقين بعيداً، مذعورات ومتهيبات. كانت هناك عجوز مسكينة، شعرها مصبوغ بالأحمر الذي كان يتوهج تحت الشمس كأرجوان دافئ، تعرض بلا كلل بيضة واحدة وتصر بصمود على طلب ثلاثة سوردي (tleta sourdi). وبعد أربع ساعات، كانت لا تزال هناك، متعنتة. وأخيراً، وافقت بزفرة عميقة على بيعها مقابل قرشين، بعد أن احتضنتها في يدها الدافئة طوال نصف يوم كامل، في درجة حرارة بلغت 45 درجة تحت الظل.

بعد القيلولة، وبرفقة الملازم، تهيأتُ لزيارة جزء من الواحة. عرض عربي، يتحدث لغة هجينة قدم نفسه كدليل ومترجم. قادنا إلى منزله وإلى منازل أصدقائه، عبر ممرات ضيقة، وبين السياجات والحدائق. توجب علينا أكل التمر، الذي كان لذيذاً بالمناسبة، والشرب من جرة ماء غير نظيفة شرب منها الجميع، وقد مسح دليلنا ببطن كفه، التي لم تكن أقل اتساخاً، فوهتها المكسورة، لنشرب اللَّقَمِي الحلو الذي يُستخرج من نخلة قُطع رأسها لهذا الغرض.

صحيت (شكر).

الحمد لله.

1- الجويو (Joyeux): لفظة فرنسية تعني حرفياً المرحون.، وهي تسمية شائعة أطلقها السكان المحليون في شمال أفريقيا على جنود كتائب المشاة الخفيفة الأفريقية (BILA) التي أنشأها الجيش الفرنسي عام 1832. كانت هذه الوحدات تتألف حصراً من الرجال ذوي السوابق العدلية أو المحكوم عليهم بعقوبات جنائية وجنود سلب الانضباط. عُرف هؤلاء الجنود بصلابتهم القتالية في البيئات الصحراوية القاسية، وفي الوقت ذاته اشتهروا بسمعتهم السيئة في التعامل مع المدنيين في الواحات والأسواق، حيث ارتبط اسمهم في الموروث الشعبي بالتمرد والتهرب من دفع أثمان المقتنيات، كما أشار المؤلف في النص.

ثم بوضع اليد تباعاً على الشفاه، ثم الجبهة، ثم القلب، في تحية وقورة، استأنفنا نزهتنا عبر الحدائق.

وها نحن في حديقة مسيجة مخضرة. في العمق، قِربة من الطوب اللبن، وبجانبه بئر ذات ذراع خشبية. صرخت امرأة طاعنة في السن، محمرة الشعر، صرخة حادة. أهي مفاجأة، أم فرح، أم استياء؟.. توقفنا مترددين. لكن أحمد، دليلنا، أشار إلينا:

تعال سيدي الكابتن، تعال سيدي الملازم، تعال....

في تلك اللحظة، ظهرت العجوز التي كانت قد دخلت الكوخ، تتبعها امرأة شابة تكاد تكون غير محجبة، لأنها كانت تمسك بين شفتيها طرف حايكها الأزرق المسحوب إلى الجانب الأيمن من وجهها، بينما ظل الجانب الأيسر مكشوفاً. سمح لنا ذلك برؤية أنها كانت جميلة حقاً؛ بشرة بيضاء باهتة، وعينان سوداوان عميقتان يميل بياضهما بوضوح إلى الزرقة، وفم ذو شفاه صافية مرسومة بدقة وذات حمرة صحية. كانت تمشي خلف العجوز قليلاً، حافية القدمين مثلها، بساقين نحيلتين وعضليتين مكشوفتين، وخصر يتمايل. كانت العجوز تتحدث وتتحدث بطلاقة مذهلة.

أدركتُ صيغ التحية المتكررة، ثم غابت عني تماماً مقاطع طويلة من حديثها.

صباح الخير أجبنا.

شرح لنا أحمد حينها سيل عبارات توددها، وظننا أننا أمام متسولة، أو من يدري؟ أمام وسيطة ما.... نظرنا إلى الشابة التي كانت تقف صامتة وساكنة بجانبها، وتتفرس فينا بنظرة متقدة وغريبة؛ غريبة بقدر ما أن المرأة العربية أمام الرومي، لا تفكر غالباً إلا في الاحتجاب والفرار. فجأة، بدأت تتحدث بصوت ناعم، بطيء وموسيقي في البداية. ثم تدريجياً، أصبحت أكثر حيوية، بل وشغفاً، وهي توجه لأحمد خطاباً طويلاً. وأخيراً

صمتت. كانت عيناها مثبتتين علينا بتوتر استثنائي. بدا وكأنها تنتظر نبوءة من أفواهنا. كانت شفتاها قد تركتا منذ فترة طرف الحايك الذي كان يحجب نصف وجهها، فبدت لنا صورتها كاملة. كانت جميلة جداً، عنقها نحيل ومرن، مزين بقلادة من أحجار سوداء وصفراء وحمراء، وتمائم من القرون، و.خميسة من الفضة. وكانت ترتدي أقراطاً فضية على شكل هلال، عريضة وثقيلة. كانت ساقاها خاليتين من الخلاخيل، وممشاها صامت.

شرح لنا أحمد أن نجمة.، تظن أننا قدمنا... وتسأل: هل نعرف زوجها؟، الـ تيرايور.[2] الخميس بن قاسم البدري، الذي كان يحارب في فرنسا منذ عامين. كانت نجمة دون أخبار منه منذ ثلاثة أشهر، ولم تكن تعرف ماذا تظن، لأنه لم يسبق له أن أمضى خمسة عشر يوماً دون أن يكتب لها كلمة. وكان لغة هذه المرأة ساذجة ومؤثرة للغاية، إذ كانت تظن حقاً أننا لا يمكن أن نأتي من فرنسا دون أن نكون قد عرفنا خميس..... وإذ شعرتُ بكل تأثرها المؤلم وبالأمل المحيي الذي تنتظره من إجابتي، جعلتُ أحمد يرد عليها:

لقد عرفتُ الكثير من الـ تيرايور.... جنوداً رائعين وشجعان وبالتأكيد رأيتُ زوجكِ دون أن أعرف اسمه. لا يجب أن تحزني، فالرسائل القادمة من فرنسا تتأخر كثيراً، وأنا نفسي أنتظر رسائل من عائلتي منذ مدة ولم

2- تيرايور (Tirailleur): مصطلح فرنسي يُراد به الرامي أو القنّاص.، وهو اللقب الرسمي الذي أُطلق على جنود المشاة في الوحدات التي أنشأها الجيش الفرنسي في مستعمراته، لاسيما في شمال أفريقيا (الجزائر وتونس والمغرب) وأفريقيا جنوب الصحراء. تشكلت هذه الوحدات من السكان المحليين والمتطوعين للخدمة تحت إمرة ضباط فرنسيين. وقد شارك هؤلاء الجنود (المعروفون تاريخياً بـ الرماة الجزائريين أو التونسيين.) في حروب كبرى خارج أوطانهم، منها الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، كما يظهر في النص من خلال شخصية الخميس بن قاسم البدري الذي أُرسل للقتال في فرنسا. ارتبط اسمهم في الذاكرة الشعبية بالبذلة العسكرية المميزة والشجاعة القتالية، وكانوا يمثلون جسراً من الآلام والآمال بين وطنهم الأصلي و.بلاد الروم..

تصلني بعد. تحلي بالصبر مثلي. وضعي ثقتك في الله. الحرب ستنتهي قريباً، ونحن الجنود سنتمكن حينها من معانقة أهلينا في فرحة النصر... والعودة النهائية. شجاعة وصبراً يا نجمة....

كانت تلتهم كلماتي. وبقدرما كان أحمد يترجمها لها، كان وجهها ينبسط، وعيناها تشرقان برؤية الحلم المستحضر، وكان على فمها ابتسامة متأثرة ويداها تضغطان على حلقها كأنما لتكتم دقات قلبها. وعندما انتهى من الترجمة، نطقت نجمة بعبارة الحمد لله. بحرارة.

اقتربت العجوز، وقبل أن أحزر نيتها، انحنت على كمي وقبلت رتبتي العسكرية. وفي تلك الأثناء، كانت نجمة، بخفة ورشاقة، تركض إلى عمق الحديقة.

وسرعان ما عادت، وفي يدها باقة خضراء. وبنعمة ساحرة، دون خجل كما دون وقاحة، مدتها إليّ، وهي تمتم بكلمات لم أفهمها.

سيدي الكابتن، إنه النعناع البري، نبات العرفان بالجميل. لا تجرؤ امرأة عربية أبداً على إعطاء هذا النبات لـ رومي.... انظر، أي فرح عظيم منحته كلماتك لنجمة..

شكرتها، وأنا متأثر بعمق. كنتُ أعلم مدى استثنائية هذا العطاء، نظراً للعادات العربية المتحفظة والمنغلقة والمتوجسة. وعندما خرجنا من الحديقة، بعد وداعات طويلة، تبعتنا نجمة بنظراتها من عينيها الطويلتين الجريئتين والخجولتين في آن واحد، وكأنها من خلالنا، كانت تلمح وراء البحر، في بلاد الروم، الـتيرايور الخميس بن قاسم البدري، زوجها، الذي كان بلا شك مات من أجل فرنسا في تلك الساعة..

وكانت في عيني دمعة، ليقيني التام بأن المسكينة نجمة لن تراه أبداً.... احتفظتُ بباقة النعناع البري تلك في خيمتي لبعض الوقت. وعطرها الذي كان يتبخر يوماً بعد يوم، كان يرمزلي إلى تلاشي الأمل الذي أعدتُ إشعاله في قلب تلك الأرملة المسكينة.



محمود بن الليفة

محمود، شيطانٌ ماردٌ هزيلُ الجسم. سمعته سيئة للغاية. هو فرد غامض، مثير للقلق، يتجنبه الجميع. مهرب، وقطاع طرق، ويُشتبه في تواطئه مع الفلاقة.، يسكن كوخاً منعزلاً تحرسه أربعة كلاب قبائلية تعوي طوال العام، مستعدة دائماً لتمزيق أي فضولي يحاول الاقتراب. لمحمود وجه غليظ، وعينان سوداوان عميقتان لا تحيدان أبداً، عينان تجولان بالوعيد وترتجف أمامهما الفتيات كما ترتجف العصافير الصغيرة تحت تحليق الصقر. لم يتزوج محمود قط، لكن الفتيات اللواتي سباهنّ لم يبلغن عنه أبداً، وإذا علم أزواجهن أو إخوانهن أو آباؤهم شيئاً، لم يجرؤ أحد على مطالبته بحق.

أخبرني شيخٌ دعوته لشرب القهوة معي عند القهوجي.، وهو يهمس بصوت مرتجف:

يلزمنا طلقة مِكحلة (موكالا)[3] جيدة في الليل لنرتاح منه....

3- البندقية التقليدية.

ولكن من يكون محمود هذا الذي يخيفكم جميعاً؟.
لا تنطق باسمه... فذلك يجلب النحس... إنه ابن الأفعى..
اشرح لي....

إليك الخبر. كانت أمه، رُقيّة العجوز، ساحرة خطيرة، وزوجة لعاشور محمود بن محمد. وقبل أن تضع محمود، رزقت بابنتين توأمين ماتتا بعد ولادتهما بوقت قصير. لم تكن رقية تريد بناتاً، لكن حليبها الوافر لم ينضب وكان يفيض من ثدييها باستمرار.

ذات ليلة، بينما كانت مستلقية على أرضية (كوخها) ملتفة بأغطيتها، استيقظت على ملمس غريب. وفي ضوء القمر، رأت أفعى بقرون ترضع من ثديها. لم تجرؤ على القيام بأي حركة من شدة ذعرها. وبعد أن ارتوت الأفعى من الحليب، تركت الثدي وانزلقت في طية الغطاء الدافئ وبقيت هناك حتى الصباح. ومع الفجر رحلت، ووجدت رقية على الرمل أثر فرارها، مرسوماً في خطوط متعرجة ومنتظمة. وفي كل ليلة كانت الأفعى تعود، وهي التي جففت حليبها. وبعد عام، وضعت رقية ابناً، وهو محمود ابن الأفعى.. ما عليك إلا أن تنظر في عينيه لترى أنه سُمّي بحق. ما عليك إلا أن تتبعه إن تجرأت لترى أنه يعشق الليل للقيام بمآثره، وأنه لم يفعل خيراً قط حيثما مر. أنا أعرف في البلاد كل الشرور التي بذرها؛ فهناك فتيات مسّهن الجن أطلقهن عليهن ومُتن دون أن يذقن ساعة فرح في هذا العالم. وهناك أفراس أصيلة جعلها تُجهض كراهيةً في أصحابها. وهناك أشجار تين لا تثمر أبداً لأن نار عينيه الأفعوانيتين لفحت أوراقها وجففت رسغها منذ الربيع. وهناك منابع مياه كانت عذبة وصافية يوماً، وهي اليوم مسمومة لأنه ارتوى منها يوماً ما. وهناك وديان لا يجرؤ الرعاة على رعي أغنامهم وماعزهم فيها، لأنهم يعودون بها مساءً منتفخة ومحتضرة لمجرد اقترابها من حديقة يملكها هناك قرب مغارة محفورة في الجبل. وهناك غزلان تطارد الضباع وتبيدها لأن تلك الغزلان، التي جذبها نظره ذات مساء، شاركته فراشه.

وهناك امرأة سوداء تقتل كل أبنائنا لأنها صارت عبدة له لعام كامل في الجبل وقد كلفها بهذه المهمة الرهيبة.

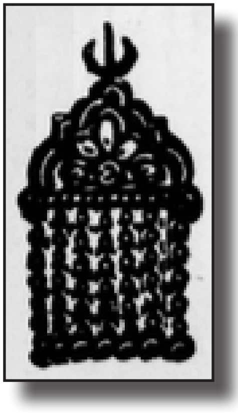
ورقية العجوز، الميتة منذ سنوات، لا تزال تروع المنطقة في الليالي المظلمة، وهي تغني بلا نهاية خلف ظهر المسافر المتأخر:

أنت تسير نحو الموت..
أشد سواداً من هذه الليلة السوداء
الموت أمامك
وأنا، الميتة، أسير على خطاك
اذهب نحو ابن الأفعى
فهو أقصر طريق نحو الموت
الموت وأنا ننتظرك
فاتحين لك أذرعنا على اتساعها.

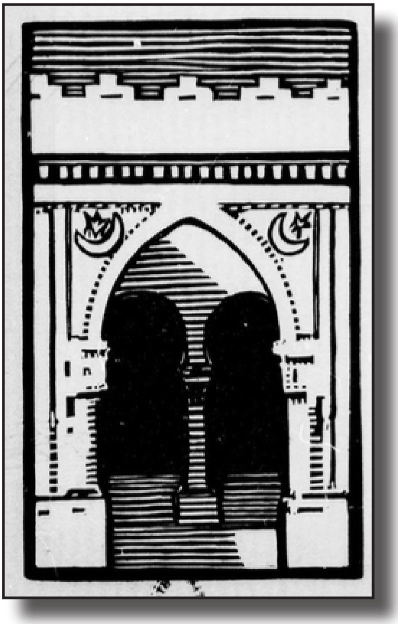
مهما ابتهلنا لمرابطينا، وصلواتنا لنبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فلا يمكننا النجاة من الغولة (الروح) رقية العجوز، ولا من ابنها، ابن الأفعى. أخاف أن أتحدث إليك هكذا... لو علم بما قصصته عليك، فماذا سيحل بنا؟.

صمت الشيخ، مرتجفاً لأنه قال الكثير. وبعد لحظات، مر محمود من أمام القهوجي. فغاص الشيخ في غطاء رأسه (قشابيته). وجذبت هذه الحركة المفاجئة انتباه العابر إلينا، رأيت عينيه تلتمعان في شمس الظهيرة وتستقران علينا طويلاً، دون أن تطرفا. وفجأة، انهارت طاولتنا، وتحطمت الكؤوس والأطباق إلى ألف قطعة. أكانت تلك القوة الخفية لـ ابن الأفعى أم الارتجاف التشنجي للشيخ هو ما تسبب في هذا الحادث الصاخب؟ أما الشيخ، فلم يكن لديه أدنى شك؛ فالمصيبة قد حلت بحياته منذ

تلك اللحظة. ركض نحو الطالب والمرابطين المشهورين ليتزود بالتمائم (المحارز) لدرء النحس. عندما أعود من هناك، سأسأل عنه. آمل إن شاء الله أن تكون تمائمه قد حمته من ابن الأفعى.



قصائد عربية





شاهد قبر

قبر العربي لا يحمل اسماً. الموتى يعودون إلى جوار الله.

أنت يا من تمر، لن تعرف اسمي.

تحت هذا الحجر الكبير القائم يوجد رأسي،[4] وعيناي، نحو مكة، تريان نور الله.

إن لم تضلّ تصلي للحظة من أجلي، فلن تعرف الجنة.

وأنت حي، يقلقك مصير الموتى، إلا إذا كنت لا تبالي...

ومع ذلك، تتوقف عند قبري... فلا يمر المرء بجانب ميت دون تفكير.

أيها الإنسان الذي يتوقف عند قبري، باحثاً عن وجهي كيف كان وأنا حي، ومنذ كم شهرٍ أنا مسجى، تذكر فقط أنني بالأمس كنت مثلك، وأنك غداً ستكون مثلي. وما يهم ذلك، مادام الله قد أراد..

4- الحجر القائم الذي يحدد موضع الرأس يسمى المشهد (M'chabad).



المجهولة

لا أعرف اسمكِ، ولا قريتكِ. يوماً ما، في الجبل، رأيتكِ. كنتِ عند النبع، سافرة الوجه. لم يكن حولكِ أحد. كانت السخال تقفز بين الصخور، والماء ينساب بطيئاً كشريط من الحرير الأزرق.

نظرتُ إلى فمكِ ونظرتُ إلى عينيكِ. أرجعتِ خماركِ بحركة خاطفة مألوفة، لكني رأيت النجمتين، فوقه، تستمران في اللمعان.

لا أعرف اسمكِ، ولا قريتكِ، لكني سأعرف كيف أجدكِ... عيناكِ فوهة بندقية، تقتلان كالبارود.



المسكين

منذ شهور، اعتدتُ أن أرسل طعاماً، بضعة أيام في الأسبوع، إلى ذلك الشحاذ العجوز الكسير الذي يئن بشكواه عند باب المسجد. بالأمس، عدتُ من رحلة استغرقت خمسة عشر يوماً على الأقل. وبينما كنتُ عائداً إلى منزلي، مرّ مسكيني..

تشبث بملابسي صارخاً بغضب تقريباً: أنا جائع...

قلت له: بالله. لستُ وحدي المسؤول عن سدّ كل احتياجاتك.... خذ هذا الدورو واتركني...

حينها، تذكرتُ هذا القول المأثور:

من أعتاد أن يأكل معك.. يجوع كلما رآك...


خيرُ الأصحابِ من يدلك على الخير

Le meilleur de tes amis est celui qui te guide vers le bien !

في المقبرة

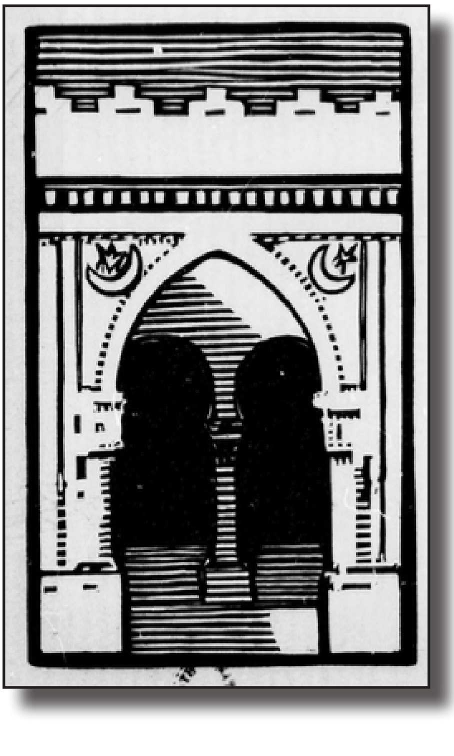
تعالي يا نجمة الصغيرة، يا حمامتي الزرقاء. تعالي قرب أملكِ، كما في أيام حياتكِ. ذراعيّ مفتوحتان لكِ كما في السابق، وقلبي يحمل لكِ ذات الحب العميق. يا نجمة الصغيرة العزيزة، تعالي إلى جانبي، لقد أعددتُ لكِ مجلساً ليناً وناعماً. سأهزكِ على صدري، وأنا أنشد لكِ الأنشودة التي كنتِ تحبينها كثيراً. ستحميكِ أشجار الطرفاء و.الكينا من الشمس الحارقة؛ سترين جاراتنا الصديقات وأرواح موتاهنّ الذين يحيطون بهنّ.
يا له من ألم.... لِمَ لا يمكنكِ محادثتي؟

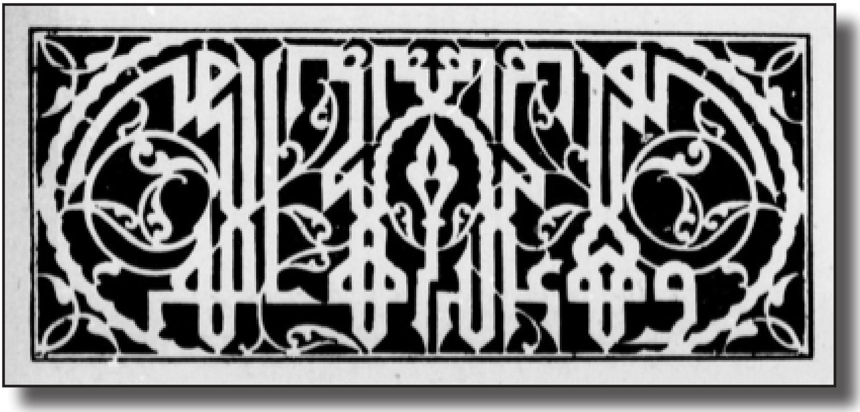
كان صوتكِ سيشدو كصوت جبريل ولعدتُ إلى البيت والفرح يملأ أيامي القادمة.

لقد حان الوقت يا نجمتي العزيزة، يجب أن أمضي. وخوفاً من أن أؤذيكِ، فإني أحذركِ، سأنهض بحذر، ولن أسحب ثوبي عن المجلس الذي

هيأته لكِ إلا بمنتهى العناية... خشية أن أوجعكِ دون أن أشعر... الله يحفظكِ... نجمتي العزيزة... إلى يوم الجمعة. إلى الجمعة القادم... سأكون هنا... باكراً، سأكون هنا... أشعر على جبهتي بقبلتكِ ممتزجة مع النسمة، وأنا أمنحكِ قبلتي... دون أن أدري أين أضعها.

تذهب النساء، يومي الاثنين والجمعة، للصلاة على قبور موتاهنّ. يخرج الأموات ويأتون بقربهنّ. تجلس أرواح الأطفال على حايك الأمهات والجدات والأخوات؛ لذلك تنهض النساء بهدوء شديد عند المغادرة، خوفاً من إيذاء أرواح الأطفال الصغيرة..





الخمر

يا إسماعيل، أنت الذي كنت تشرب الخمر قديماً بكأس طافحة، مثل الرومي.،

يا إسماعيل، أنت الذي كنت تغني في سكرك بملذات مجهولة لنا.

يا إسماعيل... لماذا لم تعد تشرب الخمر؟.. الخمر،

مرسال الفرح إلى القلب؟

يا إسماعيل، أنت الذي كنت تعيش في جنات مجنونة، بفضل هذا الخمر المتوهج، بحمرة الرمان، أو بذهب أرق من ذهب القلائد،

يا إسماعيل... لماذا لم تعد تشرب الخمر... الخمر،

مرسال الفرح إلى القلب؟

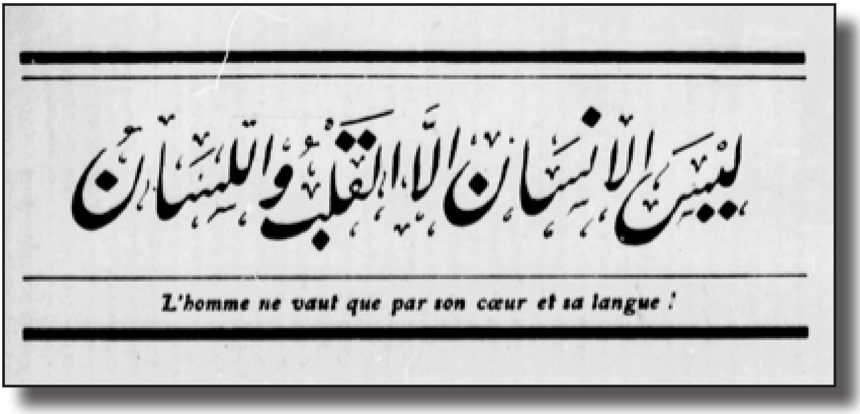
اصمت... إنه مرسال حزين، هذا الخمر الغادر، الساخن والجميل. جنته جحيم...

الخمر مرسال حزين. وقاك الله شره

حين أرسله إلى معدتي، يذهب كله إلى رأسي. يذهب كله إلى رأسي، يثقله ويوغره، ويصبح سيده، كالجن.

لا، لا. ليس الخمر صدقني
مرسال الفرح إلى القلب...
من إسماعيل، يجعلني مهبولاً،
والشيطان يضحك لرؤيتي عائداً، أترنح، عند هبوط المساء
قيمة المرء بقلبه ولسانه.





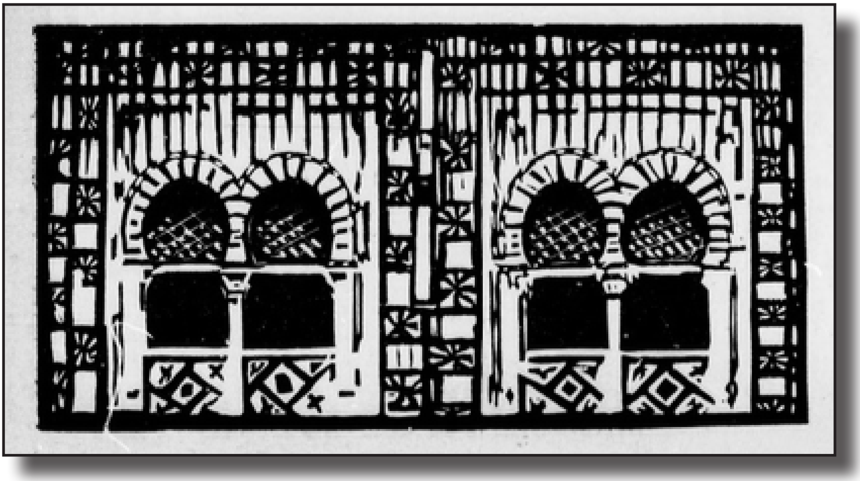
إلى مريم

صورتُكِ في عيني، مع صورة بيت المولد. أراكِ تمرين، طويلة، ممشوقة، وخفيفة، بصدر خافق صغير تحت القماش الأزرق المشدود، وأسمع رنين خلاخيلكِ على المسلك الذي سلكناه معاً..

صورتُكِ في عيني. اسمكِ الحبيب على فمي. أتغنى به في ركوبي الخيل، وأهمس به عند نومي، وأمزجه بقبلاتي الضائعة، وأقضمه وأنا أتهجاه كما يتداعب المحبون... أردده طوال الأيام... اسمكِ الحبيب على فمي..

مقامكِ في قلبي، في مأمنٍ تام، وفي كتمانٍ شديد. قلبي صندوق متين يمكنكِ العيش فيه بأمان. وطالما ظل ينبض، ستعيشين فيه يا حبيبتي كملكة، لن يطردكِ منه أحد. مقامكِ في قلبي..

صورتُكِ في عيني. اسمكِ الحبيب على فمي. مقامكِ في قلبي. كيف لكِ إذن أن تكوني غائبة؟.

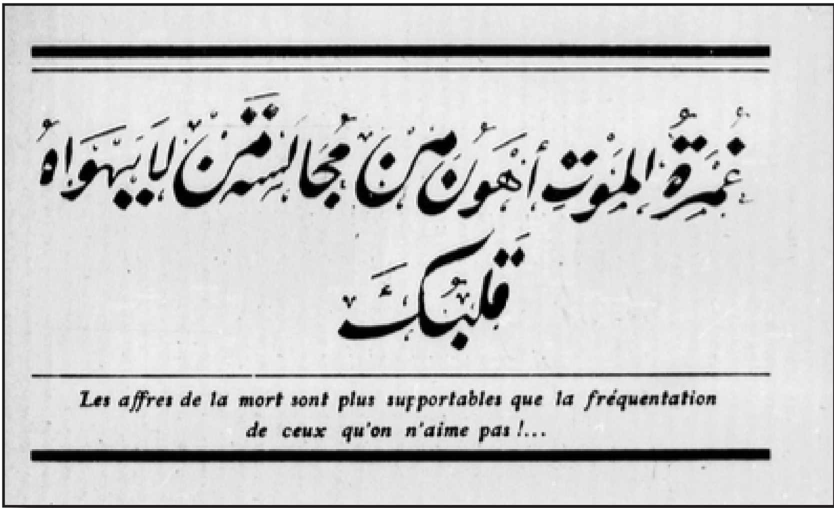


تسامح

الإنسان خطّاء، فأفضل الناس له سقطات غير متوقعة، لا يجب عليك تذكرها، ولا استخدامها لإثقال كاهله. وأكثر العلماء حذراً، وأكثرهم مواظبة واجتهاداً في حياته المكرسة للآخرين، قد يقع أحياناً في الخطأ..

وأعدل السادة، مهما بلغ تحكمه في نفسه، كونه بشراً، قد يبدر منه يوماً ما بادرة غضب. فاصفح عن الرجل الكريم خطأه الذي ارتكب؛ وعن العالم زلته التي فعل؛ وعن السلطان العادل بادرة غضبه. إن الله، الذي يعرف فضائلهم، يقيل عثرتهم كلما سقطوا..

سكرات الموت أهونُ من معاشرة من لا تحب....


غمرة الموت أهون من مجالسة من لا يهواه قلبك

Les affres de la mort sont plus supportables que la fréquentation de ceux qu'on n'aime pas !...

المُرابط

قال لي المرابط في جبل سغدل.، الذي يتخذ من فجوة في الصخور بيتاً له، تزوج شاباً قبل كل شيء. إن محمداً، النبي الكريم صلّى الله عليه يأمر بذلك كل مسلم صالح. تزوج شاباً، ليكون لك أطفال جميلون تربيهم وفق الشريعة. الرجل الذي يعيش وحيداً هو خطر؛ إنه كالذئب الذي يتربص ويطوف، والذي يسقط في الرذيلة ويهدد سلام البيوت. عندما يتزوج الرجل، يطلق الشيطان صرخة غضب مدوية.

يا سيد، ماذا دهاك؟ يسأله أتباعه.

فيجيبهم إبليس: بشريٌّ آخر، اليوم، قد أفلت مني.


شحيحٌ غنيٌّ أفقر من فقيرٍ سخيّ

Un avare riche est plus pauvre qu'un indigent généreux !...

الحكيم

الحكيم لا يبالي بالإساءات، ولا بالأحقاد أو اللعنات؛
فهو هادئ وسيدٌ على أهوائه،
ينظم حياته في فعل الخير،
واثقاً في عدل الله، مستقوياً بعطفه وبإيمانه.
يعلم أن الناس تذمه، ويعلم أنهم يشهرون به،
ويحرفون جوهر إحسانه، وينسبون إليه أفعالاً دنيئة.
لكنه يمر دون أن يسمع ما يقال،
ويتبسم...
فمَن ذا الذي يذهب حقاً ليعضّ كلباً كان قد عضّه؟



الليل

الشمس ترسل نورها إلى أعمق المغارات؛ تنشر الفرح والصحة، وتضفي الشاعرية حتى على الصحراء. إنها تعلن في كل ساعة وفي كل مكان عن مجد الله وقدرته، وتتحدث عن قوته وإشعاعه وعموم فضله. ولكن، عندما يحل الليل، وتغرق الجبال في ستائر ظلاله، وعندما يغطي كفنه الأسود المدى، ويضع على كل شيء قلق غموضه، فعندها، عودوا بأطفالكم سريعاً؛ وفي أعماق البيوت خبئوا الصغار، لأنها الساعة الغادرة التي تنتشر فيها الشياطين على الأرض.



زينب

كوخي المتواضع على ضفة الوادي، تحيط به حديقتي، وأشجار التين والنخيل تعطيني في أوانها ثماراً طيبة. ماعزي تمنحني لبنها، وأغنامي تمنحني صوفها. وبـ مكحلتي أصيد الحجل واليمام والغزلان.

كنت سأكون سعيداً، لولا أن زينب التي لم أرها إلا مرة واحدة تملأ كل قلبي ولا تترك لفكري راحة. لذا، علقتُ تميمة على أغصان شجرة الرجاء.. كلما ارتجفت أوراقها مع النسمة، ستفكر زينب فيّ. رجفات شجرة الرجاء وتجعلها هي أيضاً ترتجف؛ ستشعر بحبي يلامسها وترى صورتي تظهر لها.

ثم، يوماً ما قريباً سأقفز فوق سور حوش بيتها، وأقطفها...

كثمرة ناضجة.


طلب الأدب أولى من طلب الذهب

Rechercher les bonnes manières vaut mieux que courir après la fortune !...

الجار

جاري رجل سوء، يسلط لسانه عليّ.
ومع ذلك، لم أصنع له شراً قط وأجهل سبب كرهه.
لا شيء يثنيه، لا صبري ولا صمتي.
حتى إن قدمتُ له خدمة،
تظل نظرة خبيثة تلمع في عينه.
بالأمس، جاء والدي الشيخ، فبثثتُ له حزني،
فقال: إذا كان جارك يبغضك، فحول باب بيتك.

نسيان الموت تجعل القلب يصدأ


Oublier la mort, c'est laisser rouiller son cœur !...

نسيان الموت صدأ القلب

من الطبل إلى الرقص

عاشور له زوجتان وهو لا يمكث في بيته أبداً. يخالف شريعة القرآن المقدسة، يشرب حتى يفقد عقله، يدخن الكيف، ويعاشر يهوديات دنيئات. أحمد وصادق، ابناه، وقد تركا لحالهما، يسمعان ما يفعله أبوهما، ويريان في البيت النساء يبكين في كل حين. ولأن الشباب يظما للبهجة، سرعان ما هربا من البيت الحزين باحثين بدورهما عن نصيبهما من اللذة في الأسواق وعند القهوجي.

فجأة، تظاهر عاشور بالصرامة، وراح يوبخ ابنيه بقسوة لأنهما سمحا لنفسيهما بعيش حياة بائسة مثل حياته.

فقال له رجل مسن كان شاهداً على توبخه:

إذا كان رب البيت يضرب بالطبل، فهل يليق به أن يلوم أبناءه على حب الرقص.



الأخ

لم أجد بين أهلي إلا الجفاء، فقد تملكهم الأنانيّة. ولأني أعيش ببساطة، بلا خيلاء ولا ثروة، فلماذا يحبونني؟ شمس الله تشرق على الجميع، لكنها عند البعض تبرز الأملاك، وتجمل الأراضي والحدائق.. أما أملاكي الوحيدة فهي فضيلتي، واحترامي لسنن النبي الكريم صلى الله عليه واعتزازي بفقري. وها قد وجدتُ الصديق الفريد الذي يرتجف قلبه، مثل قلبي، لكل ما يصيبني من مكروه أو فرح. أنا جئتُ من الجنوب، وهو جاء من الغرب ومنذ ذلك الحين، لن نفترق أبداً.

وهكذا صار لي أخٌ لم تلده أمي.

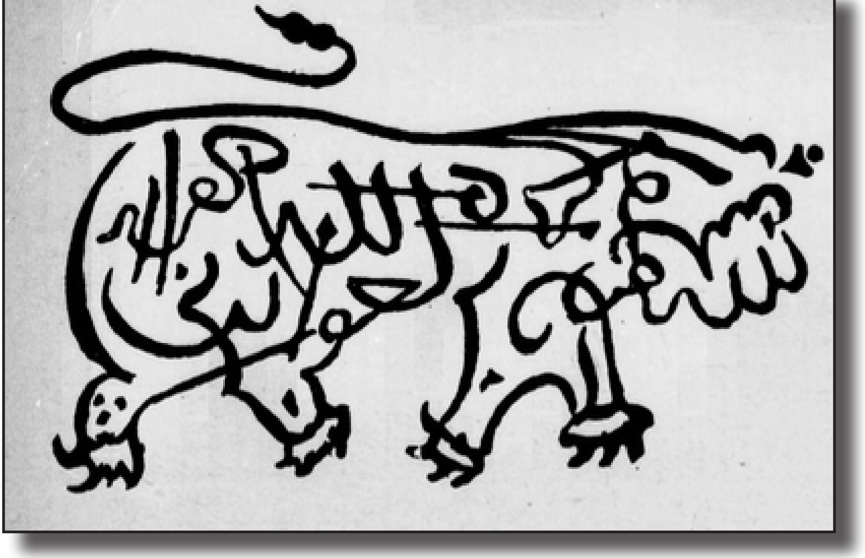

الإنسان عدو ما جهل

L'homme est ennemi de ce qu'il ignore !...

نظرة الحب

نظرة الحب تُفهم من بعيد...
تُفهم على الفور.
عندما تهبط نحو الأرض،
لا تكون إلا تجاهلاً مصطنعاً.
يا أسمر، لا غنى لي عنك،
ولا عن عينيك اللتين تشتعلان كنجمتين في ليلة زرقاء،
ولا عن شفتيك المخمليتين كحرير الشمس القاني التي تعود لتنام على صدر الليل،
ولا عن كلماتك التي هي تبرٌ من ذهب.

لقد أصبحتَ حقاً سيد أفكاري، ولم يعد بإمكاني النوم بقلبٍ لا يبالي...
(نظرة الحب تُفهم من بعيد، تُفهم على الفور.)



إلى الذي لا ينام أبداً

إذا أردتم، وأعينكم مغمضة، أن تنعموا بالراحة الربانية في الليالي الهادئة، فاستودعوا أنفسكم لـ سيد اللامتناهي والتفوا في عباءاتكم..

يا من ستنامون قريباً، استودعوا أنفسكم لـ الذي لا ينام أبداً ففي النوم تتهددكم ذات المخاطر التي تترصدكم في اليقظة.

كل شيء خطر، كل شيء مباغتة، عندما تغمر ظلال المساء كل شيء. مَن السائر؟.. مَن الآتي؟.. أفَرَحٌ هو أم خطر؟.. مَن غرق في النوم لا يفكر في ذلك. إن الأحلام السيئة والكوابيس هي جنون ترقص على صدوركم، وتجعل حلوقكم ومناخركم تصفرّ، وتبلل وجوهكم بالعرق. أنتم أردتم ذلك، أيها المسلمون الفاترون، بينما كان بإمكانكم ضمان السلام لأنفسكم... يا من ستنامون قريباً، استودعوا أنفسكم لـ الذي لا ينام أبداً..



ملحق

لقد بذلنا جهدنا في كتاب مبروكة لننقل بأقصى درجات الأمانة ما استطعنا استيعابه من عادات بدوي الجنوب التونسي. أردنا أن يكون عرض العمل، من الناحية الزخرفية، معبراً تماماً عن الطابع العربي، كما سعينا، دون وصف مطول تقريباً، إلى تجسيد اللون والجو العام للمحيط الذي تدور فيه الرواية. وقد أكد لنا بعض الأصدقاء المسلمين أننا نجحنا في ذلك، ولعل دماثتهم هي التي منحتنا هذا التأكيد بجزء كبير من المحبة. وفي المقابل، وُجهت إلينا بعض الانتقادات. قيل لنا: إنكم تصنعون كتاباً يتسم بالصدق والتوثيق الدقيق، ونحن نقر بذلك، ولهذا السبب نوجه لكم بعض العتب في التالي:

سفور المرأة أمام الأجنبي

إنكم لا تؤكدون كفاية على نقطة أن القرآن لا يمنع المسلمات صراحة من إظهار وجوههن إلا لأبناء دينهن. أما الرومي (المسيحي)، و(اليهودي)، فلا يُعتبرون كذلك. ومهما كان ذلك غير مقبولٍ لديكم، فإن المسلمة، خلافاً لما

هو شائع عموماً، تظهر وجهها دون صعوبة كبيرة للرومي.

الحجاب والزواج

إن الفتاة الراغبة في الزواج تتجنب كشف وجهها للمسلمين، طاعةً للقرآن أولاً، ثم لأنها تخشى أن (لا تعجبهم). بينما بعد دفع المهر وإتمام الزواج، فإنها تظل تعجب زوجها دائماً.

أسطورة شراء الزوجة

إن أسطورة شراء الرجل المسلم لزوجته أو زوجاته هي أيضاً فكرة يجب هدمها. فالمهر (الصداق) مفروض بالقرآن، وهو يشكل ذمة مالية للمرأة. يُسلم عند الخطوبة، ولا يمكن للزواج أن يتم إلا إذا سُلّم هذا المهر مسبقاً. وهذا العرف يعود لعصور سحيقة؛ تذكروا أنه في روما كان يُقدم المال للعروس الشابة على طبق غني، وكذلك في بريتاني وبيري في أزمنة أقرب إلينا، كانت الخطيبة تتسلم كيسًا حريريًا مليئًا بالعملات.

أسرار النساء

من المؤسف أيضاً في الفصل الحادي عشر، الدقيق للغاية في نواحٍ أخرى، أنكم وضعتم على لسان مبروكة اعترافاً لعلي بالعروض التي تلقتها من العجوز عائشة. لا يمكن لامرأة مسلمة أبداً أن تعترف بوجود وسيلة لخداع الزوج بشأن العذرية؛ فهي تخشى كثيراً من ريبة العربي المعتادة، أن يظنها خدعة ويستنتج أنها لجأت لهذا التحايل.

النساء كتومات جداً في هذه الممارسات، ولا يطردن العجائز أبداً من بيوتهن، فهنّ بحاجة إليهن غالباً، وقد أدركتم ذلك بما أن العجوز عائشة ستعود... وسيُلجأ لخدماتها مجدداً.

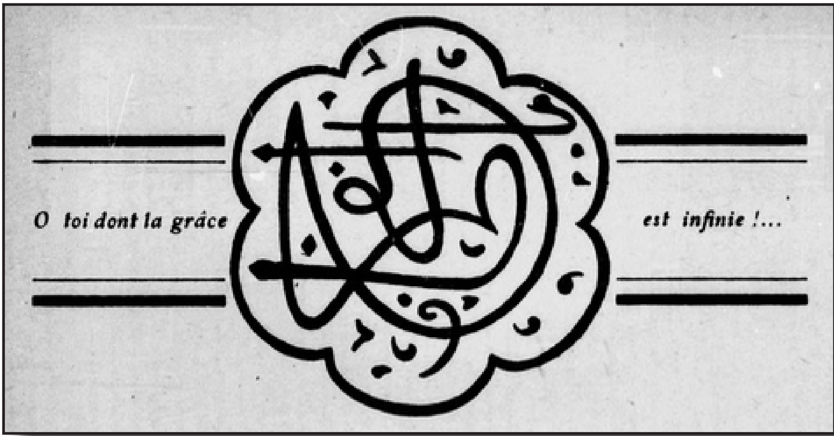
الدعاء والموت

كتبتم في الفصل السابع: (ليحصل النبي من الله على...)، في حين لا يمكن طلب شيء من الله، بل نعبده فقط، ومع ذلك يمكن قبول أن بدو الجنوب البسطاء قد يطلبون منه باستمرار متاع الدنيا.

ألم تنسبوا لمبروكة في الفصل العشرين أفكاراً بالانتحار؟ هذا ليس مسلماً على الإطلاق. جوهر الإسلام هو التسليم والرضا والتفويض لإرادة الله. ويمكن تفسير نصكم بشكل مختلف واعتبار أن مبروكة تتوقع موتاً قريباً لولا وجود ابنتها كخاتمة طبيعية وحتمية لألمها وهجرها، دون أن يكون لإرادتها دخل في ذلك.

لقد حرصنا على ذكر هذه الملاحظات القيمة لنظهر مدى الدقة التي نتوخاها في عملنا، وخوفنا كما فعل الكثير من المؤلفين الخياليين أكثر مما هم موثقون من بذر أفكار خاطئة وتفسير المظاهر بشكل سيء. نشكر مراسلينا على صراحتهم وتعاونهم الثمين في عملنا المجرد من أي انحياز أو حكم مسبق. ورغم قضائنا ثلاثين شهراً بينهم، فإن فراستنا لم تنفذ إلى كل شيء، ونظرتنا لم ترَ بعض الأشياء إلا بشكل سطحي، فنشكرهم على سد ثغراتنا.

سيلاحظ القارئ أن رؤوس فصول كتابنا مكونة جزئياً من جُمل عربية زخرفية للغاية. بعضها حِكم إسلامية. سيجد القراء الفضوليون ترجمتها الحرفية أدناها. وأخرى هي إعادة لنقوش بارزة تزين بعض المساجد، حصلنا عليها رغم أن الدخول للمساجد في تونس خاصة محظور تماماً على غير المسلمين. وهكذا فإن النقش الجميل في مقدمة (إلى القراء) يمثل المنحوتة المحفورة على الرخام الأبيض على خلفية رمادية زرقاء بـ جامع الزيتونة الكبير (الله هو الغالب دائماً). ورأس فصل (النكاح) هو الصيغة المقدسة التي يبدأ بها القرآن: (بسم الله الرحمن الرحيم). أما الزخارف الصغيرة فهي مستوحاة من المجوهرات والحلي العربية بصفة عامة: مثل حاملات التمائم، والتربيعة (خميسة/يد فاطمة)، والقلائد والخواتم، وأجزاء من عدة الخيل والفارس. هل حققنا هدفنا بهذه العناصر الثمينة؟ الجواب لك أيها القارئ الصديق. باريس، يوليو 1921.



تصويبات

تسربت بعض الأخطاء من التصحيح؛ وبعضها ليس أخطاءً حقيقية بل طريقة معيبة في النقل الصوتي للمصطلحات العربية إلى الفرنسية، حيث أن إملاءها اصطلاحي بالضرورة. وهذا النقل الصوتي قابل للنقاش دائماً حسب المناطق ودول الإسلام، فالنطق إن لم يكن اللهجة يختلف. ومع ذلك، رأينا وجوب استعادة الشكل الأكثر قبولاً عموماً.

أمين (Amin/Emine)، في الصفحة 123، اقرأ.إمين (émine) بدلاً من أمين (amin)، لأن أمين قد تسبب خلطاً، فالأمين هو رئيس حرفة أو رئيس ديني..

الأولياء (Saints)، في الصفحة 123، نكتب: (نرجوكم باسم النبي المقدس وجميع قديسيكم). كلمة قديسين (Saints) تعبير غير دقيق؛ الإسلام ليس فيه قديسون، بل رجال كانت حياتهم قدوة وتُبجل ذكراهم. لا يُعتبرون أبداً وسطاء بين الإنسان والله إلا في المناطق التي تسود فيها الخرافة..

محمد (Mahomet)، في الصفحة 121، كتبنا ماهوميت (Mahomet)،

والصحيح هو.محمد (Mohammed)، وهذا هو الإملاء الذي التزمنا به في بقية الكتاب..

صلاة الجنازة، في الصفحة 122، كتبنا (Salat el Djenaza)، والأكثر شيوعاً هو (Slat el Djenaza)..

لقب الحاج، سمينا شقيق علي، البشير بن محمد زريعة وقد ارتكبنا هناك خطأً جسيماً، فبما أن البشير أدى فريضة الحج إلى مكة وأحضر كفنه منها، فله الحق في لقب.الحاج.، ومن غير المقبول ألا يحمله. لذا يجب قراءة اسمه كالتالي: الحاج البشير بن محمد زريعة..

موت علي: وُجه إلينا عتاب جاد بخصوص موت علي؛ وقيل لنا إن هذه الموتة المليئة بالثورة المريرة لن تكون مفهومة للنفس المسلمة. فالمسلم يشكر الله دائماً حتى على الآلام والموت، وكان يجب بعد صرخة الثورة العودة للرضا وقول مكتوب أو الله أكبر.. لقد أصررنا على شكلنا وهو خطأ نقربه لنجعل من هذا المشهد الأخير فصلاً عنيفاً ووحشياً يشبه روح بطلنا. نأمل أن يُغفر لنا هذا الخطأ المتعمد..

وصفات وحواشي ثقافية

تمائم (Philtres): تتكون من مرق الأفاعي، ويعود استخدامها إلى أقدم العصور، وتتكون أيضاً من الحرباء المجففة والمسحوقة، وبول ابن آوى المجموع تحت ضوء القمر من النباتات التي تبول عليها الحيوان..

مقويات جنسية (Aphrodisiaques): تستخدم بكثرة من قبل النساء العربيات اللواتي لا يشبعهن الزوج بسخاء. وأحد أكثر المقويات تأثيراً هو المحضر من سحق خصيتي السلاحف الكبيرة في جربة.


fin

فهرس المحتويات

مقدمة المحرر.. 5
مقدمة المؤلف.. 10
رواية مبروكة.. 22
مقدمة: الزفاف... 24
الفصل الأول :تعبد... 25
الفصل الثاني: عائشة، صديقة العاشقات 27
الفصل الثالث: البيت المعطر.. 29
الفصل الرابع: الكلمات الغامضة.. 31
الفصل الخامس: الوسيطة عائشة....................................... 33
الفصل السادس: الأمل الكبير.. 34
الفصل الثامن إنه اليوم المكتوب...................................... 35
الفصل التاسع: الاستيقاظ الحزين 37
الفصل العاشر: ولاّدة البنات... 39
الفصل الحادي عشر: مبروكة المباركة 41
الفصل الثاني عشر: إنه يغني.. 43
الفصل الثالث عشر: مع امرأة أخرى.................................... 45
الفصل الرابع عشر: المغامرة الدموية.................................. 47
الفصل الخامس عشر: عائشة مجدداً 49
الفصل السادس عشر: الورقة السحرية 51
الفصل السابع عشر: صلوات.. 53
الفصل الثامن عشر: فتات السعادة 55
الفصل التاسع عشر: تلك التي ستكون أماً لأبنائي. 56
الفصل العشرون: أغاني الحب.. 58

الفصل الواحد والعشرون: عائشة، دائماً................................ 60
الفصل الثاني والعشرون: صبراً، يا جوادي العزيز................. 62
الفصل الثالث والعشرون: الرحيل.. 64
الفصل الرابع والعشرون: الله أعلم بما يعلم.......................... 66
الفصل الخامس والعشرون: أختان.. 67
الفصل السادس والعشرون: العودة الأسطورية 68
الفصل السابع والعشرون: علي.. آكل المسافات....................... 70
الفصل الثامن والعشرون: الطفل هناك؟................................. 71
الفصل التاسع والعشرون: قلق.. 72
الفصل الثلاثون: العريفات 73
الفصل الواحد والثلاثون: وبعد ذلك... سيكون الأمل الكبير. ... 74
الفصل الثاني والثلاثون: الغزو (الرازية)............................... 75
الفصل الثالث والثلاثون:... طبل الموت................................. 76
الفصل الرابع والثلاثون: موت البشير.................................... 77
الفصل الخامس والثلاثون: جنازة... 79
الفصل السادس والثلاثون: إنذارات.. 81
الفصل السابع والثلاثون : لقد أُخذ ثأر صاحبك.......................... 82
الفصل الثامن والثلاثون: العريفات والطبيب 83
الفصل التاسع والثلاثون: الفرار إلى الصحراء 85
الفصل الأربعون: الطبيب الرومي... 86
الفصل الواحد والأربعون: نجاة فاطمة.................................... 88
الفصل الثاني والأربعون: المطارَدة 89
الفصل الثالث والأربعون: القتال.. 91
الفصل الأربع والأربعون: العودة. 93
الفصل الخامس والأربعون: ساعة القدر.................................. 94

الفصل السادس والأربعون: النَّزع الأخير........................... 95
رواية نجمة.. 97
نجمة.. 98
محمود بن الليفة 103
قصائد عربية 107
شاهد قبر... 108
المجهولة... 109
المسكين 110
في المقبرة 111
الخمر.. 113
إلى مريم... 115
تسامح 116
المُرابط... 117
الحكيم 118
الليل.. 119
زينب.. 120
الجار.. 121
من الطبل إلى الرقص... 122
الأخ 123
نظرة الحب... 124
إلى الذي لا ينام أبداً 125
ملحق.. 126
تصويبات 129



القيمة الجوهرية لهذا الكتاب تكمن في بنيانه المزدوج؛ فهو يقدم دراسة وافية لعادات قبائل "التوازين" و"المرازيق" و"غمارسن"، مستعرضاً طقوس الزواج، وعروض الفرسان، ورقصات الشعر، معرجاً على البنى الاجتماعية والمعتقدات الشعبية التي كانت تحكم حياة "البدو". غير أن الرواية في جوهرها تتخذ مساراً وجدانياً فريداً، إذ اختار المؤلف أن يمنح صوته للبطلة "مبروكة"، لتسرد حكايتها بأسلوب "الموال" الصحراوي الحزين، محاولةً تصوير حياة المرأة البدوية بين جدران البيوت الطينية وفسحة الخيام، ومشاعرها تجاه زوجها "علي" الذي يجسد نموذج الفارس الصارم المرتبط بصهوة جواده وأزيز رصاصه أكثر من ارتباطه بلغة العواطف.